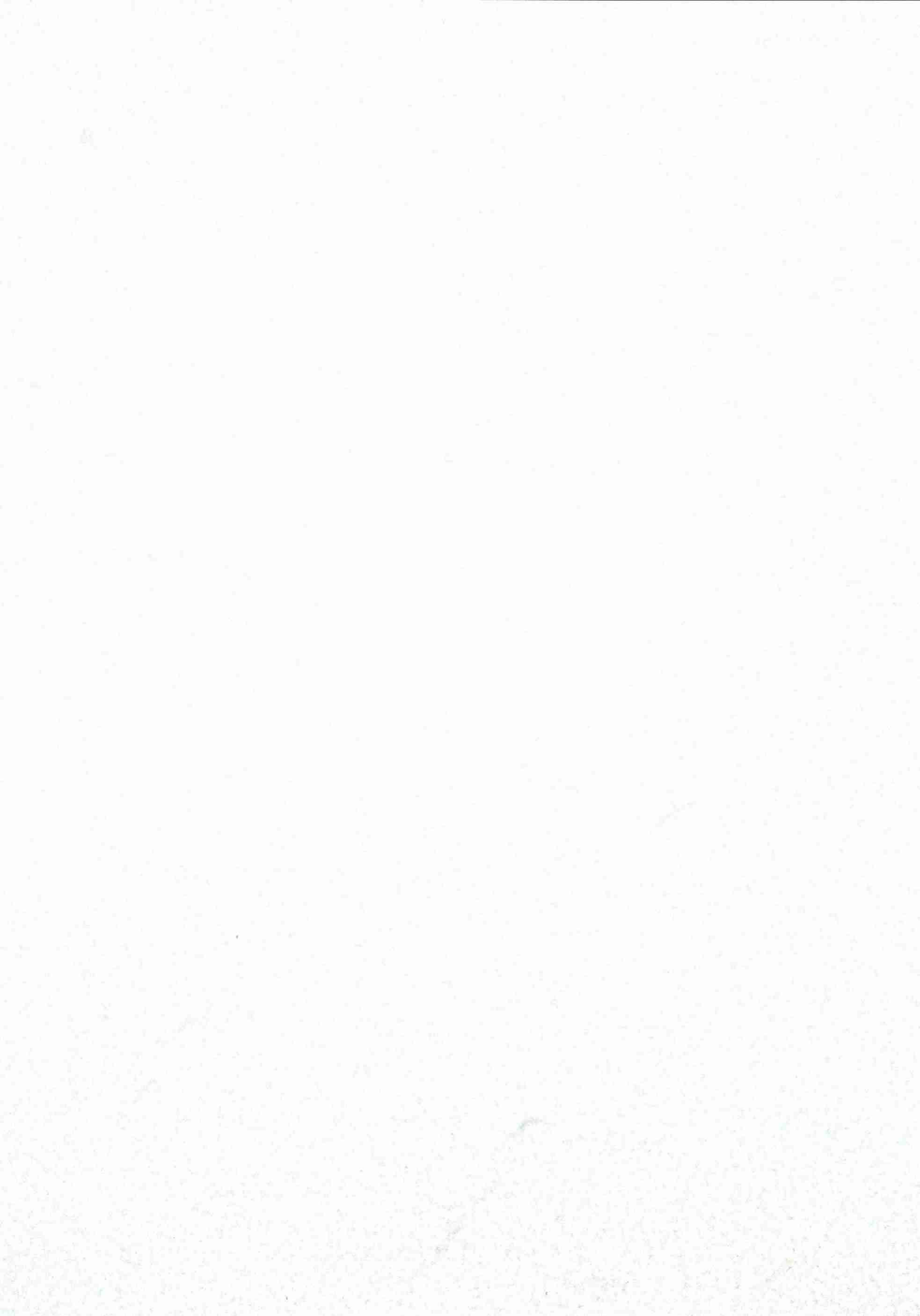
محمد المختار اسكندر

المدية

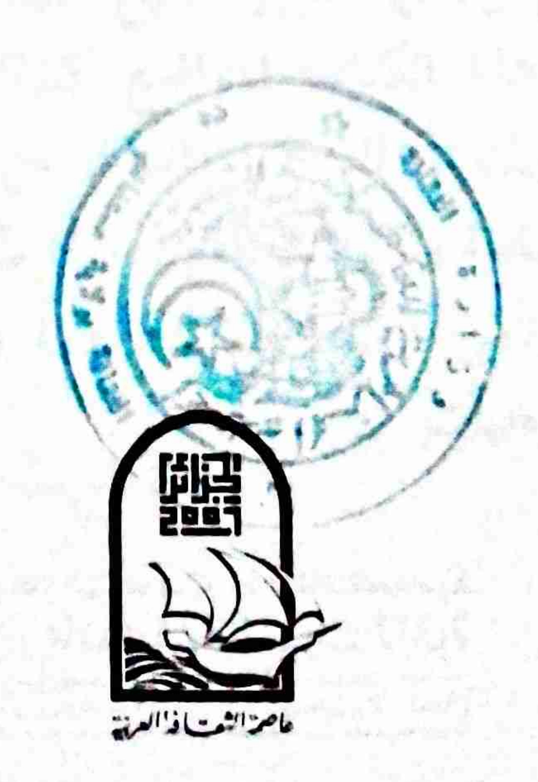




محمد المختار اسكندر

المدية

بين القديم والحديث



صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع



الشيخ محمود اسكندر.

الإهـــداء

إلى روح والدي العزيز الشيخ الإمام محمود أسكندر أهدي إليك هذا الكتاب المتواضع كتواضعك ، وأعتز به كاعتزازك بدينك وخلقك ، وأستمد من شخصيتك النبيلة كل المعاني السامية والمقومات المثلى . حيث كنت تنشد العزة والكرامة ، وتأبى الضيم والاستكانة ، ولو أدى ذلك إلى تضحيات وتضحيات ....

ابنك البار

محمد المختار اسكندر

قال فيها الدكتور محمد بن أبي شنب :

لِلْمَـدِيــة فضـلٌ عـلى كُـلِّ بَلْــدَةٍ
بصحــة جُــوٍّ ، وآعــتدالِ هَـوَاءِ
ومـا هِــيَ إلاَّ جَنَّــةٌ قَــدْ تَـزَخْـرَفَتْ
بفَـاكِـهَــةٍ طابَتْ وَأعْـذب مَـاءِ

أقوال في قيمة التاريخ

لاحياة لأمة إلا بإحياء ماضيها

«الدكتور حسين هيكل»

لامراء أن التاريخ هو أكبر عامل على الوطنية حتى ليصح القول : بأن الوطن هو تاريخ الوطن .

«عبد الرحمن صِدقي»

اذكر من مضى ، واعتبر بمن فات
تزل غرّتك ، وتزد بصيرتك

أبو منصور الثعالبي

أيها الشاب الجزائري النبيل
اعرف وطنك

لك تراث كثير وجميل ومتنوع فيجب عليك أن تتعرف عليه حتى تعرف قيمته . وتعرفه الى غيرك ، فليس حب الوطن أن تحبه وحدك ، ولكن يجب عليك أن تقنع الغير حتى يحبه معك ، وحين ذاك تسعى بكل مجهوداتك أن تناضل على هذا التراث والكنز الثمين .

فهناك شخصيات علمية وأدبية وتاريخية ، لعبت دورا هاما في مجال الثقافة والفكر ومع الأسف هي مغمورة وغير مشهورة ، فيجب عليك أن تبحث عنها وتعرفها الى غيرك وتفتخر بها في كل المجالات ، وفي كل الميادين .

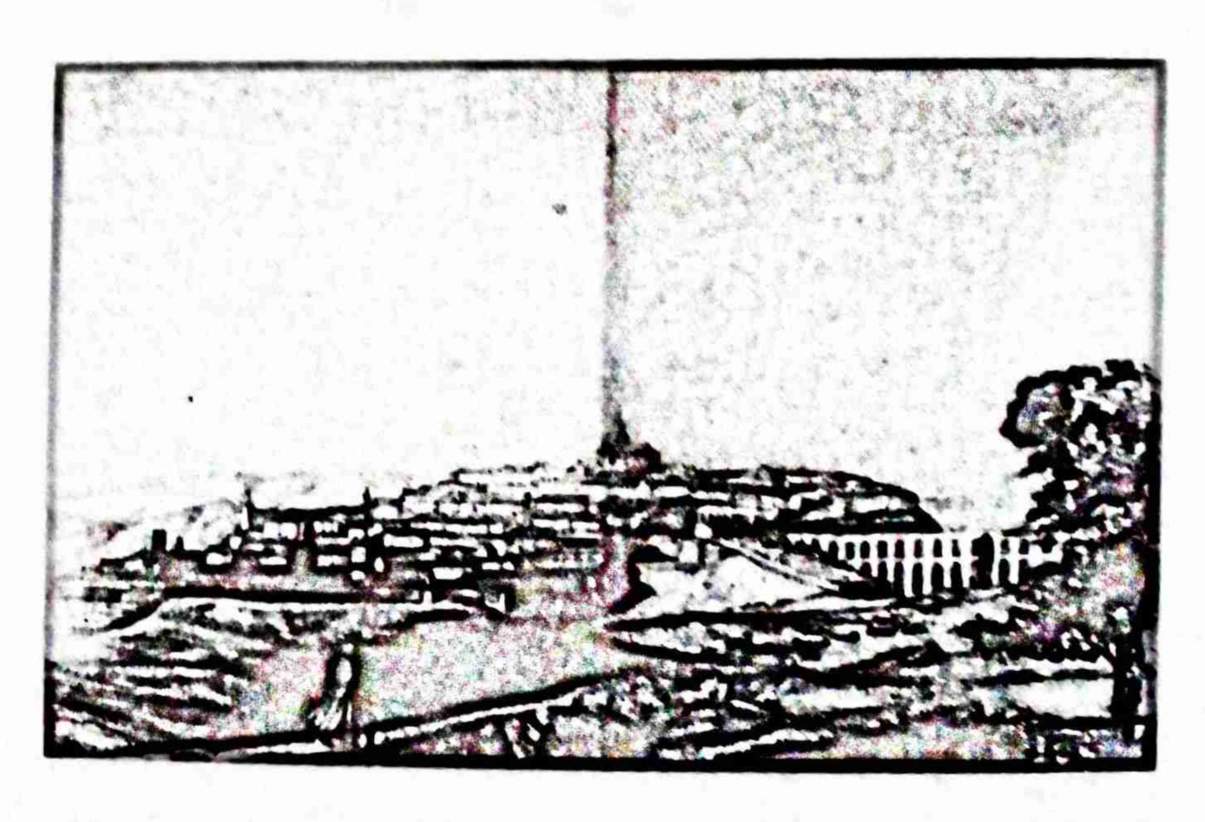
وقد حان الوقت أن تظهر الى الوجود ، وكل الطاقات مسخرة للبحث عليها ، ونفض الغبار عنها .

وها هي القيادة السياسية ووزارة الثقافة والسياحة وكل الإطارات الحية في البلاد متكاتفة ومتساندة لبعث التراث في كل المجالات ، هذا من جانب الشخصيات المختلفة ، وهناك مدن تاريخية لعبت دورا هاما وفعالا لاتقل أهميته عن الشخصيات في كل المجالات العلمية والصناعية والثقافية وجندت كل طاقاتها للمحافظة على شخصيتها واصالتها وعروبتها واسلامها مهما سلط عليها المستعمر الغاشم كل أنواع المسخ ، ولكنها بقيت صامدة في وجه التيارات المختلفة .

ومن هذه المدن مدينة المدية التاريخية العريقة في المجد والأصالة ، والمحافظة على الاخلاق الاسلامية النبيلة وأنجبت فطاحل من العلماء الأفذاذ .

ولعلك تتنشوق الآن ، إلى التعرف على هذه المدينة التي أصبحت من المدن التاريخية الشهيرة مثل قسنطينة وتلمسان وبجاية وغيرها من المدن الجزائرية الكثيرة العريقة في المجد ، والتي يجب تعريفها الى الأبناء الأشبال حتى يعرفوا عرين الأسود أولئك الآباء الذين قاوموا الاستعمار الغاشم بكل بسالة وتضحية ، مع قلة في الامكانيات ، ولكن الروح الوطنية كانت عالية ومتأصلة ، في نفوس الشعب .

ولهذا كانت الدروس التاريخية ذات قيمة عظيمة في تكوين النشء حتى يعرف قيمته الحقيقية ، ويحافظ عليها .



المدينة قبل سنة 1830

موقف مع التاريخ

ان التاريخ هو منطق للزمن ينتقل من الآباء الى الأبناء ليكون منطلقا الى الأجيال الآتية ورافدة للرعيل الوافد . ليعرف من أين ؟ والى أين ؟ .

وللمدية عمر لا يستهان به ، فهي ليست وليدة ألف عام بل يزيد ولذا يصعب على الباحث أن يسلسل منطقه فهو زمن غابر لحضارة بادت ثم أعيدت ، لأن حقائق التاريخ ، إذا أهملها الزمن وقتا ، فلابد أن تنشرها الأيام المتولدة من غابر الأزمان ، وهذه البلدة التي تربعت على عرش الطبيعة ، لتتحدى الطبيعة ، وجعلت من أحفادها من يسخرون الطبيعة وقد كان ...

ان هذه البلدة التي بلغت أكثر من ألف عام ، قد يقول منطق الأجناس أنها قد هرمت وشاخت ، ولكنها

وارقة الظل ، شابة الطبيعة ، وكلّما أمتدت الأيام بها زادتها جمالا على جمالها .

ان هذه البلدة ، التي صادقت التاريخ فكانت تاريخا ونسجت من طبيعتها وحدة متجانسة في الأشكال والطباع ، أبت الضيم وحطمت الأغلال ، ورفضت الذل والهوان ، يتجلى ذلك في مقاومتها المستمرة طوال عهودها ، لكلّ معتد أثيم .

واذا كانت الأيام لم تنصفها والكتب التاريخية أهملتها إلاّ في مصادر قليلة متفرقة ، وبصفة وجيزة . فقد فرضت نفسها على التاريخ وكانت تطل من وقت لآخر في مواقف شريفة ومعارك عنيفة تخوضها وتنتصر ، ولعل التاريخ أجمل الكلام عنها لتركتها الطويلة المثقلة بالحوادث والأحداث ، التي تتغلب على عقل المؤرخ ، وقلم الكاتب .

ان هذه المدينة التي كانت منطق اعجاب التاريخ فعزاها ونسبها يوما الى عصر الرومان ، تحت حكم « سبتم سفار 210 » بعد الميلاد ، وكانت تسمى « ميدياس » كلمة لاتينية أو كلمة « أمدياس » وهذا مع اختلاف الروايات في ذلك العهد ، أومن كلمة عربية « لمدية » وتقول روايات

أخرى أنها سميت باسم ملكة رومانية تدعى « لبدية »
أو « لمدية » .

ولعل ما يؤكد هذه النظرية ما هو موجود في كتاب لمؤلف فرنسي أندري جوليان في كتابه « تاريخ افريقية الشمالية » وينسب للطبيب « مارشال » ، فيذكر المدية في مواضيع مختلفة ويذكرها كذلك في نفس المصادر على لسان طبيب آخر « مفير سنة 1359 م ، حيث يقول : يوجد نفق للماء على مسافة ألف متر تحت المدية وهو موجود لحد الآن ، يقال له « الماجن » قال والذي يثبت هذا هو مادة البناء التي كانت تستعمل خاصة في عهد الرومان ، وهو خلط الحجر الرقيق بالجبس . وقال أيضا حينما كانوا يحفرون الأساس للمستشفى العسكري عثروا على رفات بالية وتحف ، وزهرية مصوّرة عليها صورة امرأة ، وفخار ونقود من البرونز ، وفانوسة لونها رمادي الى آخره ..

وما نستنتجه من خلال هذه البحوث أن المدينة قديمة وموجودة منذ عهد الرومان .. ولعل الصورة التي وجدت والزهرية هي رمز الملكة التي تسمى البلدة باسمها ، أو تنسب اليها ، واذا كانت ملكة الرومان قد خلعت اسمها تاجا على هذه البلدة ، فهذا ولاء العارف بجمالها الطبيعي الجذاب .

ونطوي التاريخ من عهد الرومان الطويل وغيرهم من النوميديين ولعل الاسم تحرف عبر عصور التاريخ من المدية الى نوميدية ، أو قبيلة او بطن من بطونها المتعاقبة . كما حملت اسما بربريا من بطون صنهاجة تسمى « لمدية » واليها ينسب من ينتسب اليها « لمدى » ، أو « لمداني » .

اختلاف المؤرخين

الانتساب اليها

وهذا ابن خلدون يصرح في كتابه « العبر المجلد السابع صفحة 192) فقال : « نهض عثمان ابن يغمراسن الى المدية وبها أولاد عزيز من بني توجين ، وقام بدعوته فيها قبائل من صنهاجة يعرفون « بلمدية » وهي تنسب اليهم ، والذي يدعم أصل مانكتب أو نقول ، أن ابن خلدون يصرح في موضع آخر « ان المدية » بطن من صنهاجة ، المسمى بأهله ، ونطق بعضهم « بلمدية » والنسبة اليها « لمداني » أو لمدى ، كما ذكرنا من قبل ، ولازالت لحد الآن عائلات تحمل هذا الاسم في سجلات البلدية .

وممّا يقال وينسب أن أهل المدية كانوا يصنعون المدية أو المدى ، وهي السكاكين ، فنسبت الى الصنعة التي تصنع فيها .

ونطق الكلمة باللغة الفرنسية « مديا » يوحي بأن النسبة مأخوذة من الصنعة .

مـولـد المـديـة

أراد بعض المؤرخين أن يجعل مولد المدية في عهد حماد بن زيري سنة 350 هـ.

ولكن صدق التاريخ يعطي أن المدية كانت ضاربة في القدم ، وأن تاريخها بألف عام ، يعتبر منطلقا لتاريخ حديث تناولته الأقلام كثيرا ، ونطقت به الألسنة وذلك يعتبر تدعيما لمجد هذا البلد.

وتقوية لأصالتها كما قال : ابن عبيد البكري حيث قال : « المدية بلد جليل قديم » ودعم هذا الرأي أبا الحسن الوزاني الفاسي حيث قال : ان الأفارقة القدماء ، هم الذين خططوا المدية بما يعرف بنو « مدية » ، ويؤيد هذه الأراء المؤرخ الاسباني « مرمور» عندما قال : «ان المدية عتيقة قديمة ، وان المدية سبقت بني زيري وأنها أقدم

من «آشير» «وأشير» هذه هي مدينة بالجنوب الشرقي من البرواقية قرب عين بوسيف . أنشأها زيري بن مناد رئيس صنهاجة وأميرها سنة 324 هـ . وجعلها مركزا حربيا لمحاربة قبائل زناتة الخارجة عن طاعة العبيديين ، وجلب لها الصناع والعمال من مدينة مسيلة وطبنة ، فأحكموا ، وضعها وأشادوا بنائها ، فكثر عمرانها ، وشيدت بها القصور والمنازل والحمامات ، وقصدها العلماء والتجار والأدباء من كل مكان ، وكانت بها سوق تباع فيه كل لطيفة وظريفة وضرب بها العبديون عملتهم ، وكانت حرما آمنا سنة 440 هـ ـ حيث خربها يوسف بن حماد الصنهاجي ، حينما أنشئت العاصمة الجديدة «لمدية» .

وكانت أشير في سهل قرب الجبل الأخضر هدفا للعدوان ، وعارية من التحصينات الطبيعية ، ممّا جعلها بمعزل عن الأمن ، وعرضة للطامعين ، وبذلك فكر الأقدمون أن يلوذوا بتحصين طبيعي ، فكان المكان هو «المدية» .

وفي هذا العهد عزيزي الشاب .

انطلق بنو زيري من صنهاجة ، ومن أعوان الفاطميين على الخارجيين ، وتطاولت دولتهم في القرن الرابع الهجري من تيارت غربا الى الزاب شرقا ، ونظر الفاطميون

اليهم باعجاب فأنزلوهم أحسن المنازل ، لأنهم أقدر الناس على محاربة بدوزناتة.

ولما تسلم زيري بن مناد سنة 349 هـ ، حكم تيارت من الفاطميين آذن لابنه بولوكين ، أو بلوغين ، بتأسيس ثلاث مدن ، المدية سنة 355 هـ ، مليانة سنة 360 هـ ، الجزائر سنة 362 هـ .

وفي هذا الصدد يذكرنا ابن خلدون في حديثه عن المدية ، بما نصه : « وكان المختط لها بولوكين بن زيري ، كتاب العبر الجزء السابع ، وذكر البكري في كتابه «المسالك والممالك» قام بتخطيطها» وذكر مصدر آخر كلمة «التشييد» .

وانطلاقا من هذه النصوص نفهم بأن المدية كانت أنقاضا وخرابا بعد بنائها من عهد الرومان ، وذلك لطول العصور التي مرّت عليها .

إذن ، فالتأسيس ، والتخطيط ، والتشييد ، لا يكون من العدم أو شبه العدم ، وإنما اختيار الموقع الاستراتيجي الهام هو الذي تنبه له هذا العبقري في ذلك الزمن الغابر . وكان لنا به فضل وشرف الاحتفال بمرور ألف عام على تأسيس هذه البلدة الطيبة وذلك بمناسبة الذكرى العاشرة

للاستقلال ، فكان من ضمن أحياء التراث والأصالة أن أحيت الحكومة الجزائرية ذكرى ثلاث مدن جزائرية في عيدها الألفي ، الجزائر ، مليانة ، المدية .

أما المدية فقد عاشت في عيدها الألفي أوقاتا مشرقة حيث زارها وزير التعليم الأصلي في ذلك العهد الأخ مولود قاسم ، بمناسبة عيد الاستقلال العاشر ، والعيد الألفي للمدية ودشن بها ساحة بولوكين أحياء لذكرى مؤسسها ، وبهذه المناسبة لبست المدية حلة قشيبة .

فسجل هذه الخواطر شاعر المدية وأديبها الزميل والصديق محمد الدراجي قصيدة في عيدها الألفي حيث قال :

ألا حي المدية بالتهاني	فعام الألف من عمرها دعاني
فقد برزت للحفل ترفل في حلاها	كتائهة الجمال على الغواني
أيا عاصمة الجنوب إليك أهدي	تحايا الشعب والخلد والأماني
كسبت على مرّ الزمان حديث فخر	به بلغ اللسان ذري المعاني
فلاذ بك الأمير فكنت جيشا	أثار على العدى حرب العوان
أيا شعب المدية طبت شعبا	ودام لك التقدم بالأمان
ففي حرب التحرير كنت شهما	وأسقيت العدى جرع المنون
ففي الذكرى التي ستتم عشرا	على استقلالنا من لظى الهوان
بها بلغت بلادك ألف عام	تواقة بالصمود أذى القرون
في سماء الطموح يا شعب حلّق	فنشيد الطموح أرقى الأغاني
فهنيئ بالخلود صدى المدية	وردد ذكرها وفي كل حين

تعاقبت الملوك عليها تترى وفلّ عروشها أسد العرين
تخال شبابها في السلم غنما ولكن في المعارك كالجنون
فكم شيَّد الغزاة بكل أرض معاقل في الجبال من الحصون
فما ضمنوا البقاء لهم ولكن شتتت شملهم ريح المنون
على أيدي الأباة بني الجزائر تحررت البلاد من الهوان
فجادوا بالدماء على ثراها وشادوا بالكفاح علا المباني
نبذل الروح للأجيال فَخْرٌ ويا ويْح الشعوب من الجبان
إذا شئت الخلود فكن شجاعا يرى حفظ الكرامة في التفاني
وذا استقلالك الوطني يدلى بصيرك في الدماء وفي السجون
وما كان الحصول عليه سهلا ولكن بالمعارك والسنان
واحرص على جمع التراث بكل حزم وثابر في الحياة بلا توانى
فأعمال الورى بالأيدي تنمو وتبلى بالتفاخر واللسان
وتهنئتي بهذا العيد نجوى إلى شعب المدية كالمتاني
فعيشي في الحياة سجّل فخر وتيهي بالخلود على الزمان

وكذلك نظم شاعرها الشعبي للشعر الملحون الصديق مصطفى بلجردي ، بهذه المناسبة قصيدة ، نقتطف منها هذه الأبيات :

ما أسعد بلدة المدية بذكرى عيد الألفية
فرحتين في احتفال الألفية والاستقلال

فهذه المدية بالنسبة لعيدها الألفي ، أمّا المدية في سيرها التاريخي الطويل فكانت المدية واسطة اللقاء بالفاطميين على هذه الأرض ، يجعل منها ربطا بين

المشرق والمغرب ، حيث أن الفاطميين كان لهم تأثير كبير أثناء وجودهم في هذه الديار . فكان التأثير ، والتأثر بينهما واضحا في كثير من الأوجه ، وبعد انتقالهم ، الى المشرق وفتحهم لمصر وتأسيسهم للأزهر الشريف لعنايتهم بالعلم ، وحفاظهم على الاسلام .

فلك أن تفتخر ببلادك أيها الشاب الجزائري حيث شاركت بلادك في بناء وتأسيس أكبر جامعة لعلوم الدين والشريعة على مرّ العصور والدهور ، ألا وهو الأزهر الشريف .

وقد احتفل به في الأعوام الماضية بمرور ألف على تأسيسه ، ولازال يشع بالنور على مر العصور .

واذا كانت المدية ، قد حظيت بالفاطميين قبلا ممثلا في مدينة أشير ، فانهم قد أخذوا عنهم هذه الظاهرة ، وقد تربوا على حبهم للعلم ، واحترام العلماء ، وتقديس المبادىء الاسلامية ، فكلما تطاول بها الزمن زادتها الأيام تمسكا بالدّين .

فينبغي أن ننمي هذه الملكة ونرعاها ، لنعيد مجد الاسـلام .

فالقرآن فيها محفوظ ، والدّين في أهلها ملحوظ

التقارب التاريخي بين تلمسان والمدية

لقد كانت الحضارة والتقارب بين تلمسان والمدية عبر عصور التاريخ متداولتان بينهما ، وكثيرا ما كانت الأحداث تجمع بينهما ، وتقربهما الى بعضهما . فهذا ابن خلدون يذكرهما في كتاب العبر : اذ يقول عن ابن يحي بن زيان ، مؤسس دولة الزيانيين بتلمسان مع مغراوة ، وبنو توجين ، وهم زناتة متنقلون دفعهم تيار الهلاليين نحو الغرب وأصبحوا في القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي ما بين الونشريس والسرسو ، والمدية ، وفي عهد خلافة الموحدين سنة 646 هـ ـ 1248 م ، حيث عمّت الثورة هذه الجهات فدخل بنو عبد الواد ، وأغاروا على نواحي تلمسان ،كما تغلب بنو توجين على منطقة الصحراء ، والمدية ، الى جبل الونشريس . وبادر ملوك تلمسان بالاستيلاء على المدية لموقعها الاستراتيجي ، اذ هي تقع في طريق الجنوب وطريق الشرق الجزائري ، وقد تم

الاستقلال لبني عبد الواد ، على عامة أوطان بني توجين ، وكان موقفهم مع هؤلاء يتداول ما بين السلم والحرب

وهكذا نجد المدية دائما بين مدّ وجزر وحرب وسلم ، فهي مهد الثورات وملجأ كل ثائر أولاجئ .

نقل الحضارة الى المدية

اذا كانت تلمسان قد حظيت بالحضارة والفتح أولا ونالت شهرتها ، بسبب اعتناء الحكام والأمراء المتعاقبين عليها .

فان المدية قد نالت نصيبا من هذا الاعتناء وذلك عندما استولى عليها محمد بن عبد القوى وعلى ضواحيها وأنزل بها أولاد عزيز بن يعقوب ، وجعلها لهم موطنا ، وأعلن ولايتها المستقلة فقد جاء في خبر ابن سعيد عثمان سنة 681 هـ ـ الى سنة 703 هـ مع مغرواة وبني توجين ما يلى :« لما عقد عثمان بن يغمراسن السلم مع يعقوب بن عبد الحق المريني ، ولي وجهه الى الأعمال الشرقية ، من بلد مغراوة الزناتيين ، وأصبحت بنو توجين كلها تابعة له ، ثمّ تابع السّير الى المدية سنة 688 هـ ، فقام بدعوته فيها قبائل يعرفون بالمدية كما ذكرنا من قبل .

وقد أشار ابن خلدون أن اللمذانيين غدروا بأولاد

عزيز ، ومكنوا الزيانيين من البلد ، فقام رجل يدعى عطية من توغرين ومال الى السلطان المريني المحارب لبني زيان ، ثمّ تابع يوسف بن عبد الحق ورغب في ملك الونشريس ، ثمّ عاد الى بني توجين وحاربهم ، وانتهى الى المدية ، ففتحها وعادت المدية الى طاعة السلطان عثمان فتقبلها منهم ، وبدأ بتخطيط قصبتها القديمة « عن ابن خلدون بتصرف » .

محاولة المرينيين مرة أخرى :

يتبين لنا من مراجع التاريخ وأحداثه أن المدية كانت مسرحا بين الرافدين ، يتلقفها فريق ثم يأخذها آخر في فترات تقصر أو تطول حسب استعداد الوافد ، وتفاعل أهل البلاد معه ، فحينما نجد أن الزيانيين قد ملكوا ثم حوربوا من قبل بني مرين ، نجد محاولة أخرى لبني مرين لا سترجاع ولاية التيطري ، فعندما رجع السلطان المريني أبو الحسن من تونس ، ونزل بالجزائر عزم أن يحارب بني زيان بمساعدة الثعالبة ، ونصر بن عمر بن عثمان ، وسويد وزناتة ، وانظم أبو ثابت الزياني لمغراوة ، وفشلت كل المحاولات أمام الزيانيين ، فحينما دبّ الضعف في دولة تلمسان ، وأصبح ملوكها لا يستطيعون دفع مهاجمة الأعراب ، أعلنت المدية الاستقلال التام عنها .

كما أن المدية عرفت نوعا من الاستقلال ، قبل ذلك عندما كانت قيادة امارة الثعالبة ، وكانت تشتمل على مقاطعة التيطري ومتيجة سنة 548 هـ ـ 1152 م .

شخصيات تاريخية شرّفت منطقة المدية

في عهد الدولة الموحدية نبغ في هذه الناحية شخصية لها وزنها وقيمتها في الحقل الثقافي والعلمي ، وكان لها شأن عظيم بين كبار العلماء ، وهو أبو محمد عبد الله الأشيري ، نسبة الى بلدة « أشير» بالجنوب الشرقي من مدينة البرواقية في سفح جبل تيطري والتي كانت عاصمة قبل تأسيس المدية .

كان رحمه الله امام أهل عصره في الفقه والحديث والأدب انتقل الى الشام ، وسكن حلب ففاق بها جميع علمائها ، كما قال ياقوت : كان امام أهل الحديث والفقه والأدب بحلب خاصة وبالشام عامة . يتسابق الناس الى الأخذ عنه ، والتشرف بالانتساب اليه . ويتفاخر الوزراء والملوك بمجالسته والاسترشاد بعلمه وأرائه .

استدعاه الوزير أبو المظفر عون الدين يحي بن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد الى بغداد وطلب من الملك العادل ، نور الدين محمود بن زنكه لاقراء الحديث ، وتدريس علومه بدار السلام «بغداد» فسيره الملك إليه بالاجلال والاكرام .

فاقرأ هناك كتاب الافصاح عن شرح معاني الصحاح بمحضر الوزير ، مؤلف الكتاب نفسه . وهو شرح يحتوي على تسعة عشر كتابا ، شرح بها الوزير أحاديث الصحيحين .

وقد جرت للشيخ مع الوزير منافرة فتقاطعا ثمّ ندم الوزير على موقفه هذا تجاه الشيخ ، فاعتذر اليه ، وأغدق عليه برّه واحسانه .

ثمّ سار الشيخ من بغداد الى مكة ، ثم عاد الى الشام فمات رحمه الله ، ببقاع بعلبك سنة 561 هـ . وهناك أنطفأ السراج الوهاج ، وخبا ذلك النجم الذي طلع من المغرب العربي وخاصة من بلدة أشير ليأخذ عنه المشرق العربي سراجه ونجمه ونوره ، ولاغرابة في ذلك ، فليس للعلم والمعرفة حدود بين المشرق والمغرب .

وهناك شخصية أخرى كان لها مجالها في ميدان العلم والثقافة ، وكان لها وزنها في بلاد الأندلس ، حيث مثلت عاصمة المدية أشير ، في تلك الربوع ، وهذه

الشخصية هي الراوية الامام الحافظ موسى الحجاج بن أبي بكر الأشيري ، وقد ولد في أشير وسكن مدينة تدلس « دلس » من أعمال الجزائر ومنها خرج في طلب العلم الى الأندلس ، فدخل اشبيلية سنة 535 هـ ـ 1140 م ، فلقي بها الإمام ابن العربي ، وأبا الحسن شريح بن محمد . وأبا بكر بن أبي طاهر . ودخل قرطبة . فأخذ بها عن أبي عبد الله بن أصبع ، وابن مروان بن مسيرة ... وسمع مشكل بن قتيبة عن أبي عبد الله بن وضاح بالمهدية سنة 537 هـ ـ 1142 م ، وأخذ عن أبي محمد عبد الحق بن عطية ولازم ابن أبي الخصال وأبا الوليد ابن الدباغ ، وأبا الحجاج بن يسعون وبعد أن استكمل معلوماته هناك عاد الى وطنه فنزل مدينة الجزائر وأصبح إماما واعظا وخطيبا ونشر بها علمه الغزير ، وأحدث دويا في وقته ثم انتقل من العاصمة الى مدينة دلس ، حيث الراحة والسكون ، حتى وافاه الأجل في صفر سنة 589هـ ـ 1198 م .

زائر في المديـة :

وهنا نقف قليلا عزيري الشاب لنستريح من وعثاء السفر وطول السير في دروب التاريخ ويقال أن أهل المدية ، يكرمون الضيف ويقدرون أهل العلم و ... وهذه المزية لازالت فيهم لحد الآن .

ولندع المجال لسائح ورحالة مشهور ، وهو الحسن بن محمد الوزاني الفاسي والمعروف عند الغربيين بالأسد الافريقي فوصف المدية أحسن وصف حيث قال : فالمدية مبنية في سهل جميل خصب تسقيه أنهار كثيرة ، وأهلها أغنياء يسكنون دورا جميلة ، وقد استقبلوني بحفاوة واكرام ، كأني أمير المدية .

ومن هذه الاشارة لمؤرخ مشهور ومعروف لدى الغربيين يتبيّن لنا ما يلي :

1 ــ الموقع الجغرافي الممتاز

2 ــ انتعاش الحياة الاقتصادية

3 ــ رقي العمارة على ممّر العصور ، وحتى الزمن الحاضر

وكان أصحاب المدية من البنائين يختصون ويشتهرون بفن البناء وخاصة في الناحيتين الروحية والاجتماعية .

أمّا الروحية فبناء المساجد .

وأمّا الاجتماعية بناء الحمامات .

وكفى بمسجد النّور مفخرة وجلالا وجمالا .

4 ــ اكرام الضيف ، والحفاوة به ، ممّا جعل الضيف صاحب الدار ، وصاحب الدار هو الضيف ، وهذا هو منتهى الكرم .

المدية تقدر العلم وتحترم العلماء :

ان الروح الدينية التي ورثها أهل هذه البلدة منذ الفتح الاسلامي المبين ، جعلهم يحترمون كل ذي قيمة علمية ، خصوصا ما اذا كانت تلبس لباس الاسلام ، وتدين بالكتاب والسنة ، فقد صرح بذلك الرحالة المشهور الحسن بن محمد الوزاني الفاسي ، فقال : واذا زارهم أجنبي ذو علم ومعرفة ، فإنهم يعظمونه ويبجلونه ويبقونه عندهم ليفصل في قضاياهم ويعملون بقوله ويصوبون رأيه .

ومن هذه الملاحظة الوجيزة ، ان احترامهم للأجنبي ليس احتراما لذات الأجنبي ، ولكن احتراما للعلم في ذاته ، وللصّواب في منطقه وللحق في عدله ، لذلك نجدهم يولونه منصب القضاء ، وان كان ضيفا ، والحق ليس ضيفا في أرض الله ، فقد خلق الله السموات والأرض بالحق فهذا التعظيم للحق في ذاته ، وهذا المنطق يشاهد على مسرح الحياة حتى يومنا هذا والى ساعتنا هذه .

المدية في كتابة عالم ألماني رمال سان ترجمة الدكتور أبو العيد دودو ، تحت عنوان : (أضواء على مدينة المدية)

حيث وصفها بقوله :

« تقع المدية ، وهي مدينة جبلية على بعد 40 كلم من البليدة ، ويبلغ ارتفاعها 3300 قدم أي 920 . وكانت في السابق عاصمة تيطري ، ولها نفس المكانة والأهمية السياسية التي كانت لمدينة وهران وقسنطينة .

أما الطريق الذي يؤدي إليها من البليدة فهو من المناظر الخلابة التي يوفرها الريف الجزائري لعشاق المناطق الطبيعية الساحرة .

المــديــة

المدينة المقدسة في نظر الأجانب مع مقارنتها لبلدة مقدسة في ايطاليا حيث يقول :

والمدية تعتبر عند المسلمين مدينة مقدسة ، ويمكن أن نطلق عليها من هذه الناحية « لوريتو » الاسلام فهي تشبه البيت المقدس في ذلك الحج الايطالي الشهير.

المدية بلاد الأساطير
والعجائب والمعجزات

حيث يقول نفس المصدر :

ان المدية وهي الأخرى قد حملتها الملائكة كما تقول الأسطورة من البلاد القديمة عبر الفضاء ووضعها على سفح الأطلس .

المدية في شعر الولي الصالح سيد أحمد بن يوسف دفين مليانة .

تأكيدا لهذا المعنى من قصيدة في الشعر الملحون :

أيتهـا المـديـة ،
يـا مـن حملتـك المـلائكـة
لـو كنـت امـرأة
لمـا تـزوجـت ســواك
حيـن يحـل الشّـر بأبـوابـك
تطردينه قبل أن يحل المساء .

المدية في مرآة الجزائر

محمد بن عثمان خوجة سنة 1833

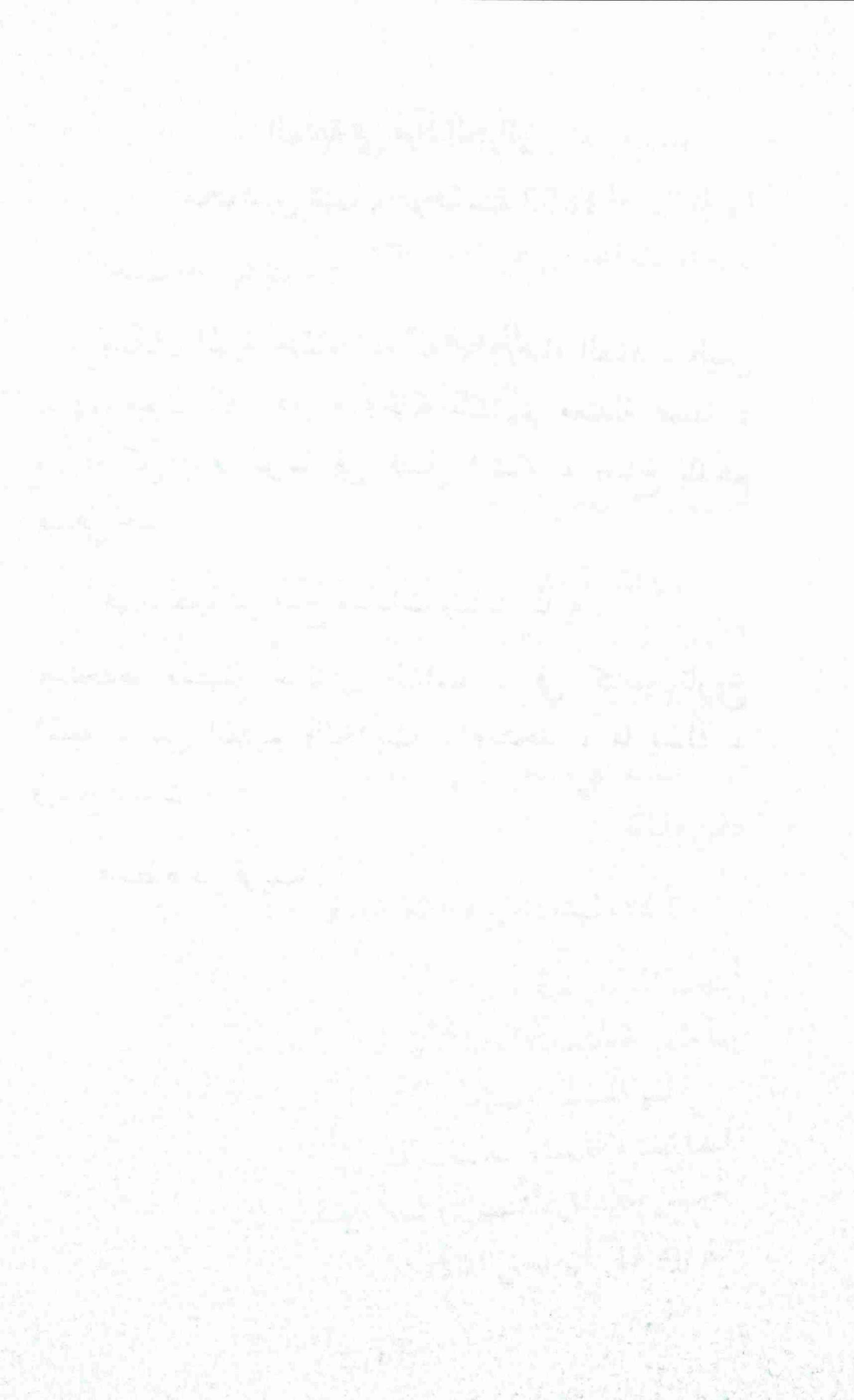
حيث وصفها بقوله :

وسكان المدية حلفاء شجاعة ، ورهناء العناد ، وليس لديهم ميول للصناعة ، وحالة طقسهم معتدلة صيفا ، وباردة كل يوم تقريبا في فصل الشتاء ، ومناخ بلدهم صحي جدا .

فهذه نظرة عن مناخ وعادات وتقاليد المدية .

وستجدها مفصلة عزيزي الشاب ، في كتاب تاريخ المدية ، بين القديم والحديث ، وستجد ، ما يسرك ، ويثلج صدرك .

فانتظره عن قريب .



المدية في عهد الأتراك

لدخول الأتراك الى القطر الجزائري فهناك نظريتان :

فالبعض يقول : انهم مستغلون جاءوا ليتمتعوا بخيرات الجزائر ، والبعض يقول : انهم حماة الاسلام من غزو الاسبان المتكالب على الشطوط الجزائرية ، وبعد الدخول ، نظموا القطر الجزائري الى أربع ولايات :

1 ـ دار السلطان ، وتشمل عماله الجزائر اليوم .

2 ـ بايلك الشرق ، وعاصمته قسنطينة .

3 ـ بايلك الغرب وعاصمته مازونة ، ومعسكر ، ووهـران .

4 ـ بايلك الجنوب ، وعاصمته المدية .

وكان تأسيس بايلك تيطري سنة 1518 م في عهد الباي حسن ، ونصب رجب بايا عليها ، وكانت الحدود لولاية

تيطري هي الحدود الحالية لولاية تيطري ، « قبل التقسيم الجديد » .

وما كانت تقدمه المدية في عهد الأتراك بواسطة الباي زكاة الغنم لبيت المال ، ويوزع شيء على أرباب الدولة ، وكذلك في عيد الأضحى . أما في عاشوراء ، فلا يبعث لأن عمالته أغلبها صحراء والسكان العرب ، أصحاب غنم لا حرث لهم ، والذي يقبضه من الرعيـة ، شيء قليل يكفيه هو ومحلته .

أمّا عشور بلدة المدية فيجعله «عولة» كسكسي محمّصة ، برغل ، وله وكيل عولة يقدمها الى دار الامارة ، في كل شهر ، وهذا ما يسمى الآن عند الدول والحكومات ، بالتموين الاحتياطي .

أمّـا الضريبـة : التي يدفعها باي تيطري تقـدر بـ : 76000 ، في كل ثلاث سنوات .

ومن أشهر البايات الذين اشتهروا وكان صالحا ورعا هو عثمان الكردي ، وهو والد محمد باي الكبير باي وهران .

وعدد البايات في العهد التركي في مدينة المدية يقدر بـ :18 بايا ما بين 1516 م ، الى 1775 م ، وستجد في الكتاب « تاريخ المدية بين القديم والحديث » كل البايات بالتفصيل ان شاء الله عزيزي الشاب .

أمّا القوة العسكرية التي كان يملكها باي تيطري فكانت تتمثل :

يتركب منهم حرسة الخاص .

1 ـ في خمسين صبايحي ، و 15 مكاحلي ، يتركب منهم حرسه الخاص .

2 ـ نواب المدية ، التي تتركب من خمسة صفارة « مائة وعشرون جنديا » .

3 ـ قوة احتياطية من مائتين زبنطوط ، أو كسيرجية ، في البرواقية .

4 ـ حامية سور الغزلان ، التي تتركب من30 جنديا و 60 احتياطي ، وكانت القوات مقسمة الى أربع قيادات .

1 ـ قيادة التل الصحراوية .

2 ـ قيادة التل القبلية .

3 ـ قيادة سور الغـزلان .

4 ـ قيادة الجنوب ، وتشتمل على القبائل الرحل وأتباع أولاد مختار .

أمّا الناحية الثقافية والاجتماعية ، فقد اجمع المؤرخون أنه كان عصرا مزدهرا بالثقافة والتعليم ، فقد كان يقدر عدد المكاتب القرآنية في القطر الجزائري ثلاثة آلاف كتاب

قرآني ، أو « مسيد » في اللهجة الجزائرية ، وكان عدد المتعلمين ، وقلة الأميين ، أكثر من فرنسا ، وهذه بشهادة بعضهم .

أما بالنسبة للمدية فقد أسّسوا أربعة مساجد ، مسجد مراد للمذهب الحنفي ، والجامع الأحمر ، وبقيت صومعته لحد الآن ، في ساحة بولوكين ، ومسجد في الثكنة العسكرية ، ومسجد سيدي سليمان ، وتهدّم وبقيت الزاوية لقراءة القرآن لحد الآن .

وترميم وتجديد المسجد المالكي في عهد مصطفى باي وهذه الوثيقة المسجلة ، في رخامة المسجد ، مع ذكر الباني والتاريخ والرجاء من الله المثوبة « وهي هذه بنصها التركي :

وهكذا ينطق بكلمة انكيجون ، سافر أولدي جنّت ايجره بربنا تاريخ : 1237 ـ 1237 .

« ططري بكم مصطفى بك ، حقه ايدوبا مستثنا أثرى قويدي بومسجدي قيلدي بنا «ق،ت،ك»، هزاز خيرموفق ايلسون باري خدا اتكيجون ، انتشو . »

وهذه ترجمة ما هومكتوب على الرخامة :

« امتثالا لأوامر الحق ، بني مصطفى بك باي تيطري

هذا المسجد ، وتركه أثرا ، وفقه الله العلي لآلاء الخير وأكرمه ببناء في الجنان » .

وهو الذي بنى الدار الجميلة بقرب هذا المسجد والتي سكن بها الأمير فيما بعد ، وبنى حوشا الباي وبنى قبّة على ضريح الولي الصالح الشيخ الركاني ، ولازالت لحد الآن عائلات تحمل اسم الباي ، حسن باي ، محمد بن الباي ، عباس التركي ، بن تركية ، الخ .

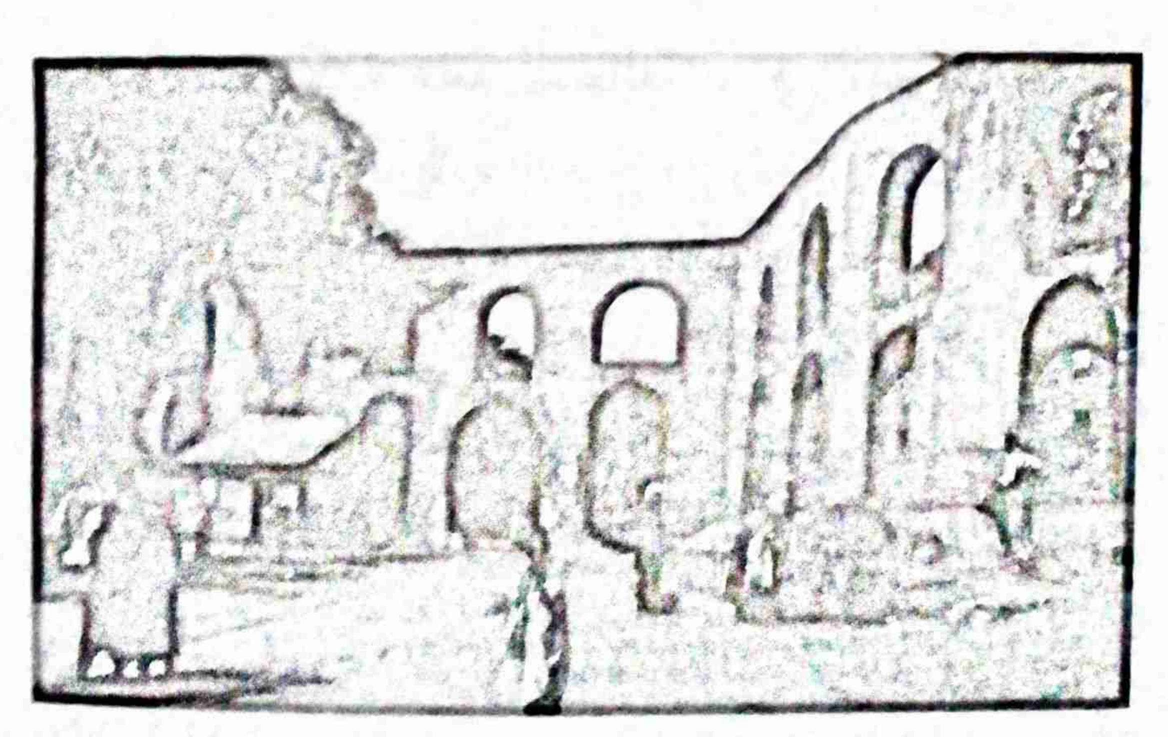
وكانت مكتبة عامة للمطالعة ، في نهج الاخوة بن غربية وكان يقيم عليها ، الحاج بن رقية ، كهذا قال أحد أنجاله ، وكانت المدينة في عهد الأتراك محاطة بالأسوار ، ولها خمسة أبواب وهي على التوالي : باب الجزائر ، باب القرط ، وباب الأقواس ، وباب سيدي الصحراوي ، وباب البركاني .

وطال العهد التركي مدّة ثلاث قرون وزيادة ، ولابد لهذا العهد الطويل من حسنات وسيئات ، غير أن الاستعمار وأعوانه يودون أن يظهر العهد التركي بالعجز والتأخر والاضطراب والفوضي ، حتى يظهر العهد الاستعماري ، على أحسن ما يرام في زعمهم !

ولذا قال ردّا عليهم أمير شعرائنا الشيخ محمد العيد

في تقريظ كتاب عثمان باشا في العهد التركي في الجزائر ، للاستاذ توفيق المدني قال :

نصر ما استكبر أعداءنا في الأرض أو العقبي لمن يصبر
فمجدنا أعظم من مجدهم والله من أكبرهم أكبر



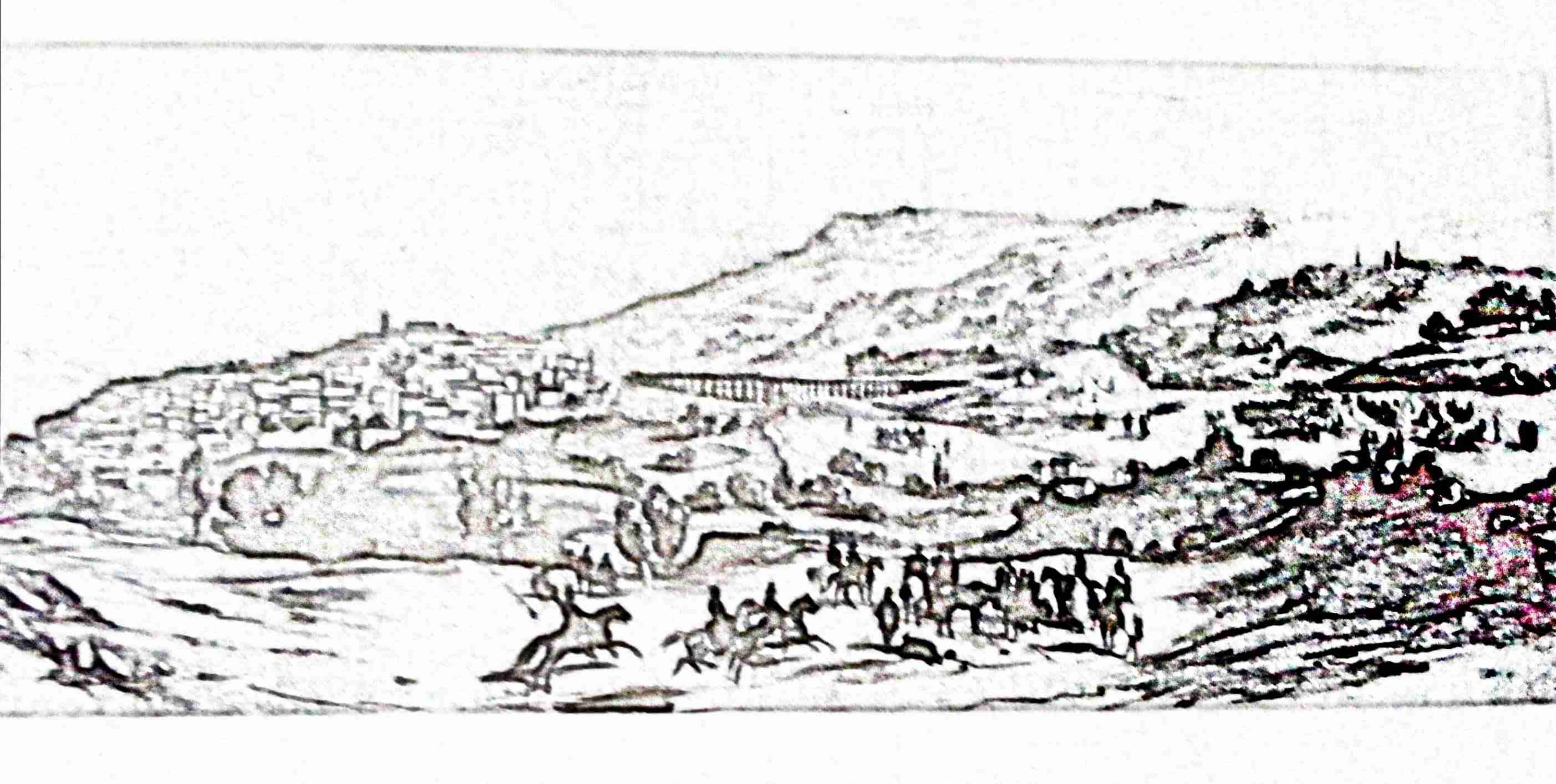
صورة لاحد مداخل المدية المسمى بباب الاقواس قبل اندثاره وكان اعلى السور يستعمل كمجرى لمياه الشرب قبل الاحتلال .

عهد الاحتلال الفرنسي البغيض

فلا بد لنا من وقفة قصيرة عزيزي القاريئ الشاب حتى تكون على خبرة ودراية بسبب احتلال فرنسا للجزائر ، وتحليلا للظروف السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية والأخلاقية في غاية الخطورة ، في فرنسا ، فوضى شاملة وانكسار وهزيمة في حرب وكساد وبطالة في المجتمع فتجاه ذلك كله أرادوا أن يرفعوا من معنويات جيشهم المخذول المهزوم .

فكانت الضحية الجزائر المنكوبة ، وجاء اليوم المشؤوم وهو 5 جويلية 1830 . ونزل الجيش واحتلت الجزائر في ظروفها المعروفة ، وبدأ الشّر ينتشر في أنحاء القطر ، وكان نصيب المدية منه ، من يوم الاحتلال الى يوم الاستقلال ، نصيبا لا بأس به ، من الرزايا والضحايا ، والبطولة والاستشهاد .

المسالك الوعرة أعاقت كثيرا تقدم المحتلين مما آخر الاحتلال لسنوات عديدة



احدى المعارك لمقاومة المحتلين خلال محاولاتهم العديدة لغزو المدية .

فالمدية ما بين 1830 الى 1840 ، تعرضت أربع مرات للاحتلال ، وفي كل مرة يكبدون العدو الخسائر الفادحة ، ويقاوم رجالها مقاولة عنيفة وشريفة ، حيث قال الدكور سعد الله في كتابه « التاريخ الحديث ، ص : 82 » قال : وفي 27 نوفمبر وصل أكلوزيل الى البليدة قادما من حملته الفاشلة على مدينة المدية عاصمة تيطري ، ونحن نذكر باختصار من محاولات كلوزيل الى برتوزيين مارس سنة 1836 ، بقيادة أكلوزيل ، وفي 7 أفريل ، بقيادة دي ميشال ، الى المدية لأنهم أكتشفوا أنها في موقع استراتيجي هام ورابطة بين الشرق والغرب والجنوب وقبل احتلالها الأخير كان الأمير قد سبقهم اليها واعتصم بها سنة 1835 ، لأنه تنبه الى موقعها وأهميته بالنسبة للمعركة الجديدة .

المدية في عهد الأمير :

وذلك بمجرد ما بيعته الأمة على القيادة وتنظيم شؤون الدولة ، حتى احتل مليانة والمدية ، ونصب أخاه محي الدين على مليانة ، ونصب على المدية خليفة عنه وهو الثائر المجاهد محمد بن عيسى البركاني ابن صاحب الضريح المشهور ، لأنه أدرى بأمور المدينة ، ونظامها الداخلي ، وكان يتصرف في القوات التالية :



المسجد الحنفي المبني في العهد التركي الذي حول إلى كنيسة في عهد الاحتلال ثم عاد إلى أصله بعد أن بني المستعمر كنيسة له .

1) رجالـة منظمون 600 رجل .
2) فرسان منظمون 200 رجل .
3) رجال المدفعية 30 رجلا .
4) فرسان غير منظمين 400 رجل .
5) رجال غير منظمين 2000 رجل .

المجمـــــــــوع : 6830 رجلا .

وتقول بعض المصادر أن رئيس المدفعية هو محمد آغا المعروف بابن كسكسه الكورغلي ، ولازالت هذه العائلة في المدية لحد الآن . وابتنى الأمير معامل حربية لصنع السلاح ، وانتاج البارود والرصاص في كل من المدن الثلاث ، أولها المدية ، مليانة ، معسكر ، وقبل مغادرته المدية في مرة من المرات ، استقبل مبعوث فرنسا ، ليجس النبض ، ويعرف قوّة الأمير ويختبر ميزان الحرارة والاستعداد . وهكذا كان دأبهم ، حينما تشتد المعارك ويشعرون بالهزيمة يطلبون الهدنة .

وجنّ جنون فرنسا كدأبها دائما أن يتغلب ويتفوق عليها هذا الناشئ في ميادين مختلفة ، فجهزت أكبر قوة ، وكبار الضباط أمثال الطاغية بيجو ، فجددت الكرة على المدية ، ودارت معارك عنيفة سنة 1840م ، عند أسوار المدينة .

وهذه صورة شاهدة على هذه المعركة (صورة).

وهنا سقطت المدية ، في يد المستعمر الغاشم ، وبعد سقوط المدية ، رفع راية الكفاح والجهاد مع بقية جنوده الشيخ البركاني وانظم الى جيش الأمير بقواته التي كانت تحت قيادته ، حتى سنة 1847 .

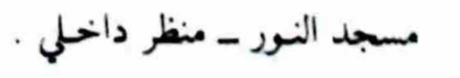
وهكذا بعد 17 عشر عاما من الجهاد والكفاح المرير انتهت المقاومة النظامية ، وانطوت صفحة من أروع صفحات البطولة . غير أن المقاومة الشعبية لم تنته ، وقد حمل لواءها المناضل الشيخ البركاني وظلّ يقاوم ، ويكبد القوات الفرنسية ، بحرب الكمائن ، وقطع الطرقات في كثير من الجهات ، وخاصة جبال شنوة ، وموزايا ، وجبال المدية وتقول بعض المصادر ، بقي يكافح حتى انظم الى قوات المقراني في جبال جرجرة الشامخة ، والاستعانة بها .

وأمّا المدية بعد الاحتلال الأخير ، فكان نصيبها من هذا الشّر مثل بقية المدن الجزائرية ، وأقبح أنواع الشّر ، ما كان يمس المقدّسات والمعتقدات .

ولله در شاعرنا العربي ، حيث قال :

يهون علينا أن تصاب جسومنا   وتسلم اعراض لنا وعقول .

ومن هذه النكاية البشعة ، تمّ تحويل مسجد مراد للمذهب الحنفي الى كنيسة !، لأنهم شعروا بالعاطفة



مسجد النور – منظر داخلي .

الدينية ، متأصلة في الشعب ، ولم تستطع يد العدوان أن تطمس عروبتنا وأصالتنا مهما سلطوا علينا من أنواع المسخ ، ولله در شاعرنا الفذ الشيخ محمد العيد حيث عبر عن هذا الشعور ويخاطب القطر الجزائري :

هـا أنـت في وسط الزعازع ثابت	بـاق عـلى الإسلام لـم تتـزعزع
بوركت من وطـن تسامى فالتـقي	بالمنتهـى في مستـــواه الأرفــع
أفـريقيـا أخت الحجاز ديانـة	وربيبـــة البيت الحرام الأمْنَع

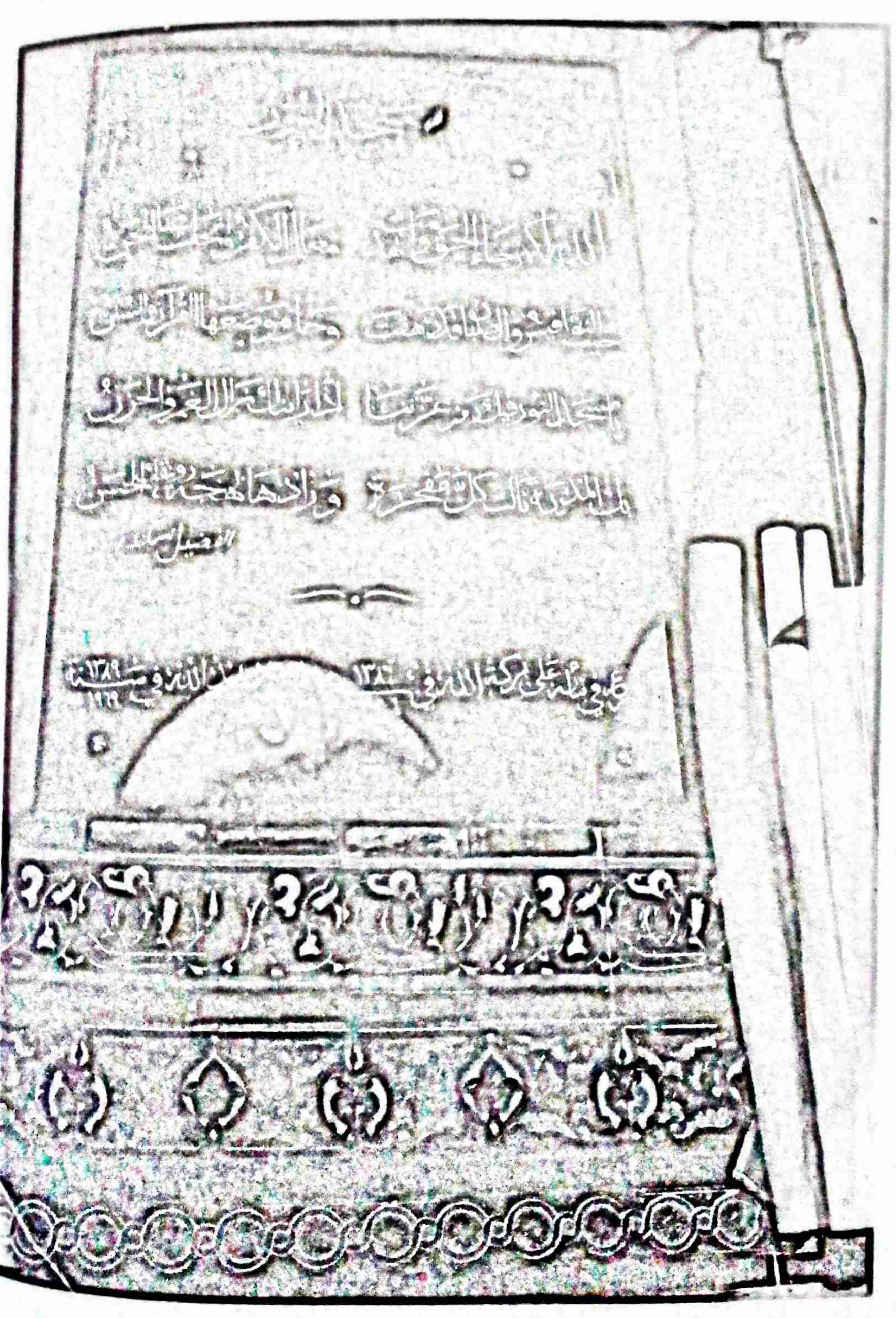
ولن يضيع حق وراءه طالب

وذلك حينما بنو الكنيسة التي حوّلت الى مسجد النّور في العهد الجديد ، طالب جدنا الشيخ أحمد اسكندر مع جماعة من أعيان المدية ارجاع المسجد الى الأصل ، وتأديته للشعائر الدينية ، ورجع فيه تلاوة القرآن ، وصوت المؤذن يدوي في السماء ويملأ الفضاء :

الله أكبر الله أكبر

ودار الزمان دورته ، وجاء عهد الاستقلال وساهمت مساهمة فعّالة لارجاع الكنيسة الى مسجد النّور الحالي .

بل كنت صاحب الفكرة وأول خطوة ، وأول اتصال مع وزارة التعليم الأصلي في ذلك الوقت ، مع جماعة من أعيان المدية ، وهذه مسألة تاريخية ، فالأحسن أن تظهر



مسجد النور رخامة التدشين وفيها إبيات شعرية تبين تحويل الكنيسة إلى مسجد وهي من نظم فضيلة الشيخ محمد الفضيل أسكندر.

وتسجل للحقيقة والتاريخ ، فاتصلت هاتفيا مع الأخ الأستاذ الهاشمي التيجاني لأنه كان في ذلك الوقت الكاتب العام أو الأمين العام للوزارة ، فشرحت له حاجة المدينة الى مسجد جديد ، وذكرت له موقع الكنيسة ، وان المسيحيين قد نزحوا عن المدية ، فقال لي بالحرف الواحد ، هذه مسألة لاتقضي بالهاتف فالأحسن أن تأتي في أقرب فرصة ممكنة ونتباحث في الأمر.

وبالفعل اتصلت بالأخ نور الدين احمايمي لأنه كان مكلف بمشيخة البلدية المؤقتة في ذلك الوقت .. والبلدية لها دخل في القضية لأن التراب تابع للبلدية وملك لها ، والبناء لجمعية الكنائس العالمية ووثيقة الأرض موجودة في البلدية .

فاتفقنا وذهبنا الى العاصمة ، للاتصال مع الأخ الهاشمي التيجاني ، وسافرنا مع الأخ منصور بن صفار في سيارته ، وكان برفقتنا الأخ الصديق النشيط الذي لعب دورا هاما في بناء مسجد النور حسن حمديس وكانت هذه السطور.

ووصلنا الى الوزارة ،ولم يكن يوم استقبال ، وكدنا أن نخوض معركة مع الحارس للاتصال مع الكاتب العام .

ومن حسن الصدف ، انه خرج في ذلك الوقت

بالذات من مكتبه الى مكتب آخر ، سمع ضجة ، فأمر بالسماح لنا للالتحاق به .

وبقي الأخ منصور وحسن في السيارة ، وحينما تيقنوا بأننا صعدنا ، جاءا مسرعين للالتحاق بنا فمنعهم الحارس ، وقال لهم من كان معهم مصلحة قد استدعاهم ، ولم يسمح لهم بالالتحاق بنا ، وبعد الأخذ والرد مع حضرة الكاتب العام في كيفية الحصول على الكنيسة لارجاعها مسجد ، فقال لانذهب بعيدا ، وندخل البيوت من أبوابها فلنتصل حالا بممثل الكنائس ورئيسهم والمسؤول عنهم « دوفال » فطلبه بالهاتف ، ومن حسن الحظ والصدف وجده فقال له : ان جماعة من أهل المدية ، يقولون ان الجالية المسيحية قد نزحت عن البلاد ، والكنيسة قد أصبحت مغلقة ، والناس في حاجة الى مسجد فأجاب السيد « دوفال » اذا نزح المسيحيون ، فلا حاجة لنا بها ، بشرط أن لاتكون محل تجاري ، وتبقى تؤدي مهمتها الدينية . فقال الكاتب العام ، بل تكون مسجد ومعهد ، فقال هي لكم من الآن .

وأنا اتصل بممثل الكنيسة هناك ...

فقال الكاتب العام ، هي لكم من الآن ، ترممونها

وتصلحونها وتصلون بها ، أو تهدمونها وتبنوا على أنقاضها مسجدا جديدا ، ورجعنا ببشارة عظيمة ، فتأسست فيما بعد جمعية مسجد النّور وبدأ النشاط ، وجمع المال . وشاركت الأمة بجميع فئاتها ، مشاركة فعالة ، لانجاز هذا المشروع الخيري العظيم ، الذي يعد مفخرة لأهل المدية ومفخرة للجزائر بصفة عامة .

ولنا عودة الى تفصيل كل ذلك من البداية الى النهاية حول هذا المسجد في كتاب « تاريخ المدية بين القديم والحديث » مع الصّوَر فارتقبه عزيزي الشاب فتجد فيه ما يسرك .

وبما أننا لازلنا في عهد أواخر الأتراك ، وعهد الأمير عبد القادر ، قبل الاحتلال النهائي لمدينة المدية ، من طرف الاستعمار ، فتعميما للفائدة فالأحسن أن نطلع على وثيقة تاريخية هامة ، والتي أفادنا بها افادة كبيرة ، تذكر ، وتشكر ، من جانب الدكتور أبي القاسم سعد الله ، الباحثة الجزائري ، وهي وثيقة عثر عليها فيما يخص مدينة المدية وفي دفتر محكمتها في أواخر العهد العتماني وعهد الأمير عبد القادر ، والتي تعطي ضوءا على ما كانت عليه الأحوال الشخصية وأخبار القضاة ، وقضايا البيع والشراء وأمور العتق ، والعقود ، والمنازعات ، وللقسم العسكري يتعلق



صورة للأمير وختمه .

بعد الأمير ، ومدى مساهمة المدية وأهلها في المجهود الحربي ضد الفرنسيين ، جمع الأموال ، والأسلحة ، والأغذية ، والملابس وتسجيلها وتصنيفها وارسالها الى خلفاء الأمير وممثليه .

فهي وثيقة بحق جديرة بالدراسة والاطلاع عليها ، من حيث التنظيم ، والتسيير ، وأخذ العضة والعبرة منها .

والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون ، في كثير من الحالات ، والأوقات ، وهو ما قامت به المدية في حرب التحرير وما قدمته ، من مساعدات في شتى المجالات .

وها هي الوثيقة ، كما سلمها لي حضرة الدكتور حفظه الله ورعاه وسدّد خطاه ، للحقائق التاريخية والثقافية والأدبية ، والحركات الوطنية .

دفتر محكمة المدية

الجزائر أواخر العهد العثماني (1821ـ1839)

اطلعنا على دفتر هام ، يبدو أنه كان في محكمة المدية قبل الاحتلال الفرنسي وأثناء عهد الأمير عبد القادر وهذا الدفتر ينقسم الى قسمين كبيرين ، قسم الأحوال الشخصية وأخبار القضاة ، وقضايا البيع والشراء ، وأمور العتق والعقود والمنازعات ونحو ذلك .

والقسم التاني عسكري يتعلق بعهد الأمير عبد القادر ومدى مساهمة المدية وأهلها في المجهود الحربي ضد الفرنسيس جمع الأموال ، والأسلحة ، والأغذية ، والملابس ، وتسجيلها وتصنيفها وارسالها الى خلفاء الأمير وممثله .

ويهمنا الآن القسم الأول من هذا الدفتر ، وهو قسم الأحوال الشخصية ، وما اشتمل عليه من قضايا اجتماعية واقتصادية قد تساعدنا على فهم التطور التاريخي لمدينة المدية ، خصوصا والجزائر عموما .

أما القسم الثاني من هذا الدفتر فسنتعرض له في مناسبة أخرى .

ولكن قبل الدخول في تفصيل الدفتر ، نود أن نصفه للقراء ، فهو يحتوي على حوالي 43 ورقة ، بعضها ليس فيها سوى كتابات قليلة وبعضها مكدّس بالكتابة ، وترقيم الصفحات بالأرقام العربية ، ولكنه ترقيم مضاف وغير منظم ، ويحمل الدفتر رقم 82 « 1146» في المكتبة التي جلبناه منها .

ان أول تاريخ وجدناه في هذا الدفتر هو ـ 1237 « 1821 » ، أما آخر تاريخ فهو 1255 .

وممّا يتعلق بالقسم الأول منه وهو يوافق 1839 .

ويحتوي الدفتر على خطوط مختلفة باختام القضاة وبعضها بدون أختامهم .

وهذه أسماء من وجدنا فيه من الكتاب الذين كانوا يوقعون وينقلون الأحكام الصادرة عن القضاة : محمد الخديم المعروف أيضا باسم محمد بن المختار ، ومحمد بن الفخار ، ومحمد ابن رامول ،عبد القادر بن محمد مزيغي ، والمولود بن محمد وعلي بن محمد المازري ، ويرد الاسم الأول بكثرة ، ويبدو أنه كان كاتب الضبط ، أو خوجة القاضي ، لأن محمد الخديم ، كان يكتب أحيانا عبارة ، باذن الشيخ القاضي ، بعد الوثيقة التي يحررها وكثير من وثائق الدفتر تحمل طابع القاضي « أحمد بن محمد ، الذي يظهر أنه اسم القاضي الحاج أحمد بن محمد بن الحاج سلامة ، الذي سيأتي تاريخ تعيينه .

ونظرا للصلة بين آخر عهد العثمانيين وعهد الأمير في المدية ، فقد جئنا بالأخبار الواردة في الدفتر ، عن التحولات التي طرأت على المدينة في الفترة الانتقالية أيضا مثل تعيين قضاة الأمير وتبديل الموازين ، وانتشار العملة الجديدة الخ ...

غير أننا لم نذكر الأخبار العسكرية ، أثناء عهد الأمير لأن الدفتر خلالها ، أخذ شكلا جديدا تماما ، كما أشرنا .

والمعروف أن مدينة المدية ، كانت عاصمة اقليم تيطري ، أحد الأقاليم الثلاثة ، والاثنان الآخران هما ، وهران في الغرب وقسنطينة في الشرق التي تتكّون منها الجزائر خلال العهد العثماني ، وآخر بايات المدية هو مصطفى بومزراق ، الذي لعب دورا غامضا في أوائل الاحتلال ، وانتهى منفيا ، حيث توفى في الاسكندرية بمصر ، وكانت المدية مركزا حضريا هاما ، تضم عائلات عريقة بالاضافة الى عائلات أندلسية ، وأخرى تركية .

ويظهر من أسماء المطلقين والمتزوجين أن بعض الجنود الأتراك ، كانوا يسكنونها أيضا ، كما نجد أسماء لأناس واردين على المدية من نواحي أخرى بعيدة كما تظهر الوثائق التي يضمها الدفتر أن المدية كانت مركزا لعدد من أصحاب الحرف ، وقد تبدلت الأيدي على المدية في أوائل الاحتلال .

فبعد نهاية مقاومة الباي بومزراق حاول الفرنسيون بقيادة كلوزيل ، شن حملة على المدية في 17 نوفمبر 1830 ، وهي المعروفة بالحملة الأولى .

أما الحملة الثانية فقد وقعت في 25 جوان 1831 .

أمّا جيش الأمير ، فقد دخل المدية سنة 1253 هـ 1835 م .

وقد جعل الأمير للمدية خليفة من خلفائه ، وعيّن على رأسها في البداية أخاه مصطفى ، ثم عزله وعيّن بدله الشيخ محمد البركاني .

ومهما يكن من أمر ، فان وثائق دفتر محكمة المدية قد عكست هذه التحولات ، فوجدنا مثلا أسماء العهد العثماني ، وأسماء قضاة العهد الأميري ، وحوادث عن حياة الناس في العهد الأول ، وعن حياتهم في العهد الثاني .

وهكذا يصور لنا هذا الدفتر فترة حرجة من فترات تاريخ المدية ومن ثمّة تاريخ الجزائر .

وقد صنفنا المعلومات التي وجدناها في الدفتر كما يلي :

أ – تعيين القضاة ، والمفتين وبعض أخبارهم .
ب – أخبار عن الأمير في المدية .
ج – حالات الزواج .
د – حالات الطّلاق .
هـ – حالات العتق ، وأفعال البر .
ز – حالات التجارة والعقود والمنازعات .
ح – حالات تقسيم التركات والديات ونحوها .
ط – أخبار متفرقة .
ي – استنتاجات .

أ ـ تعيين القضاة والمفتين وأخبارهم :

أول تاريخ يفتتح به الدفتر هو تاريخ تولية الشيخ الحاج أحمد بن محمد سلامة القضاء سنة 1238 ـ 1822 م ، ولكن قبل تعرضنا لحياة القضاة ، نود أن نذكر أسماء المفتين المذكورين في هذا الدفتر :

وأول المفتين هو أبو القاسم المغربي ، الذي كان قد تولى الفتيا ، سنة 1172 ، والذي وردت اليه الاشارة ، في الدفتر ، على أنه كان قد نصح بقراءة آية الكرسي ،360 مرّة ، بيوم عاشوراء ، والتاريخ المذكور تاريخ متقدم طبعا عن بداية الدفتر ، ولم يذكر اسم هذا المفتي الا من أجل دعائه ، لا من أجل تعيينه . ولكن الدفتر يشير الى إسم مفتي آخر اسمه أبو القاسم أيضا ، وذلك سنة 1241 ـ 1825 م .

والغريب أننا لانجد مع هذا الاسم لقبا أو نسبة ، وكلّ ما وجدناه هو العبارة التالية :

تولى الفتيا في المدية العالم ... المدرس ، أبو القاسم والظاهر أنه ليس هو أبا القاسم المغربي السابق لوجود فارق الزمن الطويل بينهما .

وفي وثيقة بتاريخ 1245 هـ 1829 م أن المفتي في المدية هو الشيخ محمد البصري ، فقد نص فيها على ما يلي : « الحمد لله ما وقع بحضرتنا هو كذلك ، وأنا عبده محمد بن أحمد البصري المفتي يومئذ ، والوثيقة المذكورة هي شهادة على طلاق شاب يدعى الأخضر بن العربي الخليفي .

أمّا المفتي الآخر الذي ورد اسمه في الدفتر فهو الهواري بن أحمد البزاغة ، فقد ورد اسمه ضمن شهود ، على وثيقة تتعلق باعادة تنظيم مدخولات القضاة ، والعدول ، في المدية وهي اجراءات اتخذها القاضي عبد الله بن صالح الذي سيرد اسمه بعد قليل وذلك في أواسط ذي القعدة سنة 1252 هـ ـ 1836 م .

ومن ثمة يتضح أن أسماء المفتين بالمدية غير واردة في الدفتر بصفة منتظمة ، مثل أسماء القضاة ، اذ من الواضح أن هناك ثغرات زمنية لم يسدها الدفتر ، ولكن الأمر يختلف بالنسبة للقضاة ، وأول من افتتح به الدفتر منهم هو الشيخ الحاج أحمد بن محمد بن الحاج سلامة وذلك في 20 شعبان سنة 1238 هـ ، وقد جعل الحاج أحمد سلامة ختمه على هذه الشاكلة : « الواثق بالصمد أحمد بن محمد 1238 » ويوجد على جانبي هذه الوثيقة أسماء الموثقين ،

محمد نن الحاج حميدة بن الفخار[1] ، ومحمد بن رامول ، وتاريخ الكتابة ، هو 21 شعبان من نفس السنة ، وقد تكررت تولية الحاج أحمد سلامة في تواريخ أخرى .

ففي سنة 1241 ، وجدناه قد تولى من جديد ثمّ تولاه مرة أخرى 1248هـ ، وقد وجدنا مع هذا التاريخ عبارة ، بعد ما كان وعزل ثم رجع ، والى جانب ذلك ختم هذا القاضي ، ولكن الوثائق تتحدث على تاريخ التولية ، ولاتذكر تاريخ العزل ، بالنسبة لجميع القضاة .

وذلك أن القاضي سنة 1242 هـ مثلا كان هو الحاج أحمد بن المفتي ،[2] .

ويبدوا أنه وقع تغيير سريع للقضاة خلال سنة 1241 ـ 1242 هـ ، فقد وجدنا في هذا الفترة القصيرة أسماء القضاة الآتية :

الحاج أحمد سلامة (الذي سبق ذكره) سنة 1241 الظاهر أنه استمر من سنة 1238 الى سنة 1241 .

---

(1) توفي أحمد (فميدة) بن الفخار يوم الجمعة سنة 1244 هـ ، وسجل ذلك صديقه محمد بن راموا بكثير من التأثر والأسف .

(2) سنة 1242 غير موجودة ، مع ذكر تولية هذا القاضي ولكن أوجباها لوجود النص نفسه في صفحة أخرى بالدفتر محررة بهذا التاريخ .

محمد بن محمد المحجوب حسب وثيقة أخرى محررة سنة 1241 هـ أيضا .

محمد بن الخلفة ، وثيقة بتاريخ جمادي الثانية 1241 هـ شهر شعبان 1242 .

علي بن سيدي المزاري أثناء فترة لم نجد لها تاريخ ، غير اسم القاضي ، سنة 1249 ، 21 شوال ، هو الحاج أحمد بن الصحراوي وقد جعل القاضي الصحراوي ختمه على هذا النحو : الواثق بالعلي أحمد بن محمد الصحراوي سنة 1246 هـ ، وهذا تاريخ تولية ، كما جرت العادة .

وقد سجل هذه الوثيقة الموثق المولود بن محمد ، ويبدوا أن الشيخ الصحراوي قد تولى في فترة حرجة ذلك أن الاحتلال قد وقع سنة 1246 ، للجزائر ، وبدأت ضغوط الفرنسيين على المدية تتوالى فهل كانت توليه الصحراري من قبل الفرنسيين ، أو من قبل الأهالي ؟ ومهما كان الأمر فان أول القضاة الذي ورد اسمهم وتعينهم من قبل الأمير هو محمد بن أحمد البصري على يد مولانا أمير المؤمنين السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين ، 22 ربيع الثاني عام 1252 هـ .

وقد سبقت الاشارة الى أن الشيخ البصري هذا كان

قد تولى الفتوى بالمدية سنة 1245 هـ ، ولكن لم تكد تمضي عدة أسابيع على هذا التعيين حتى وجدنا أسماء لقاض جديد هو عبد الله بن عبد القادر بن صالح « العالم العلامة الخبر الفهامة المدرس المحقق ، وذلك يوم الجمعة 12 جمادي الثانية 1252 هـ .

ويبدوا أن الشيخ عبد الله بن صالح ، قد عزل ثم عاد أيضا ، لاننا لم نعثر على تاريخ العزل فاننا وجدنا تاريخ التولية الجديدة وهو 3 صفر سنة 1253 هـ .

ولا ندري ان كان لضياع ختم القاضي عبد الله بن صالح دخل في عزله ، فقد أعلن أن ختمه قد ضاع منه يوما واحدا في هذه السنة (1253) ، ثم عثر عليه ، وأشاع الخبر ، ان كل رسم ، وجد بغير العدالة لم يعمل به ، ولو كان بخط القاضي نفسه أو خط أخيه محمد ، وقد سجل هذا الخبر والاعلان رلموثق محمد الخديم عن اذن القاضي .

ومن أخبار الشيخ عبد الله بن صالح ، ذلك التنظيم الذي أجراه سنة 1252 هـ ، بالنسبة لمدخول محكمة المدية وأجور القضاة والعدول فيها ، فقد اتخذ اجراء بصدد ذلك وأشهد عليه المفتي ، وبعض العلماء ، وذلك في زمن الأمير عبد القادر .

وخلاصة هذا الاجراء ان مدخول المحكمة يقسم الى ثلاثة : الثلث للقاضي ، والثلثان الباقيان ، يأخذهما العدول مهما كان عددهم ، ويكون هذا الاجراء ساري المفعول ، مهما كان عدد العدول ، ومهما تغيّر القضاة ، وتتحدث الوثيقة التي وجدنا فيها هذا الاجراء ، عن أن عدد العدول في هذه السنة ، (1252 هـ) أربعة ، ومدخول المحكمة يتكون من أجرة كتابة عقود الزواج ، وغيره .

ومن كتابة الوثائق ،مهما كانت وتذكر الوثيقة أن الشهود كانوا أربعة وأنهم جميعا وضعوا خطوطهم على الوثيقة وقد شاهدنا نحن ذلك على الدفتر ، وهم : العالم أحمد وقد شاهدنا نحن ذلك على الدفتر ، وهم : الصالح أحمد بن محمد حفيد عبد الله الصحراوي ، الحاكم عندئذ[3] والعالم على بن نهل الأغواطي ، نسبا سليل الشيخ معمر ، والعالم عبد القادر بن دحمان صهر الحاج عبد القادر السلطان يومئذ ، ومفتي المدية الهواري بن أحمد البزاغي ، وتاريخ الوثيقة هو أواسط ذي القعدة سنة 1252 هـ .

---

(3) يفهم من هذا التعبير أن الشيخ الصحراوي كان شيخ مدينة المدية رئيس البلدية ، ويفهم من عبارة يومئذ التي بعدها أن تسجيل الوثيقة كان متأخرا ، أما المصاهرة بين الأمير وابن دحمان فلا نعرف عنها شيئا .

غير أن الشيخ عبد الله بن صالح لم يبق في وظيفته سوى بضعة شهور ، هذه المرة ، فقد وجدنا اسما لقاضي جديد ولاه الأمير عبد القادر أيضا ، 19 من ذي القعدة سنة 1253 هـ ، وهو الشيخ محمد السعيدي بن أبي زيان سليل القطب الزياني السيد أحمد بن يوسف الملياني ، على يد أمير المؤمنين مولانا السلطان ، السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين ، وقد جعل الشيخ محمد السيعيدي ختمه على هذا الشكل : (الواثق بالديان ، محمد بن أبي زيان) .

وقد حدث نفس الضياع لختم القاضي محمد السيعيدي أيضا ، ولكن لم يعثر عليه ، ولذلك أعلن في المدية بأن قاضي الأمير محمد السيعيدي بن أبي زيان ، قد ضاع منه ختمه المثمن الشكل أواسط ربيع الأنور سنة 1254 هـ ، وأن القاضي ، قد غير شكل ختمه فجعله مستطيلا عموديا .

وكانت وظيفة القاضي هامة ، فهو محل ثقة الناس وممثل للسلطة السياسية والادارية ، والساهر على تنفيذ أحكام الشريعة والأحوال الشخصية ، والعامل على الفصل في المنازعات كما سنرى وقد وجدنا في الدفتر ، أن القاضي قد تولى أيضا تفريق راتب أحد شهداء مقاومة الأمير على ورثة الشهيد ، فقد توفي مصطفى بن محمد

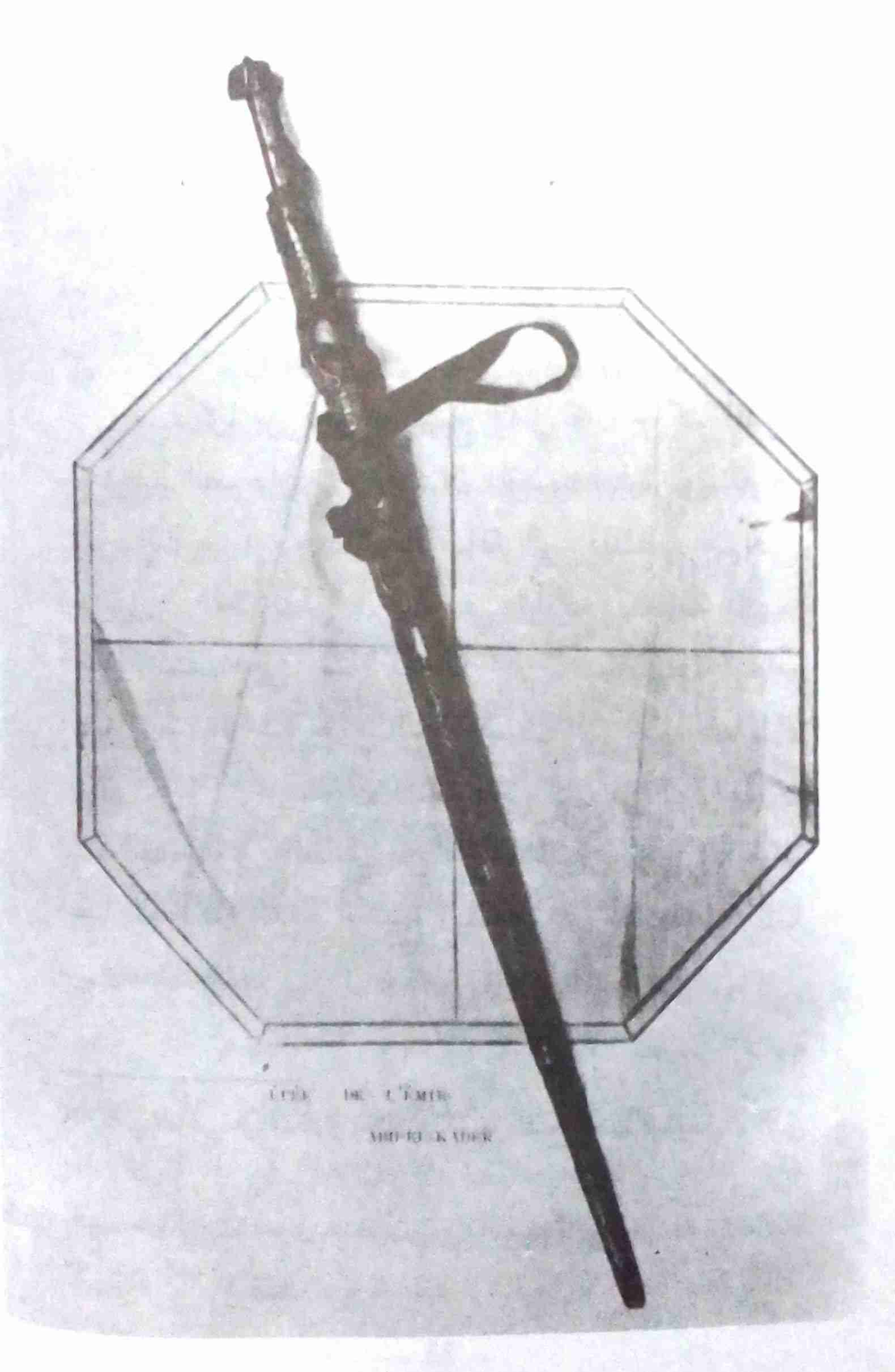
بن مامه ، الذي كان عسكريا ، وجنديا في محلة محمد بن علال خليفة الأمير على مليانة ، وبعث سيدنا أيده الله ، راتبه الى الشيخ القاضي ويأمره بتفريقه على ورثته ، وقدره ، ستة دنانير فضية ، وبناء على الوثيقة فان القاضي قام بتوزيع الراتب على ورثة الشهيد المذكور ، وذلك سنة 1255[4] .

وقد ذكرنا من قبل أن الشيخ الذي كان حاكم المدينة وهو أحمد الصحراوي ، وقلنا ان المقصود بهذه الوظيفة هو رئيس البلدية ، ووجدنا بالاضافة الى ذلك ، شيخين آخرين ، شغلا نفس الوظيفة في تواريخ مختلفة أولهما أحمد الشقماقجي سنة 1240 هـ ، وثانيهما الحاج الصوفي سنة 1244 هـ ، الذي أضيف الى اسمه عبارة ، شيخ البلد[5] . ويبدو أن الشقماقجي كان من الكراغلة ، بينما الصحراوي والصوفي من أعيان المدية ، ومن الملاحظ أيضا أن حكام المدينة أو شيخ البلدة ، أي بلدة المدية كانوا من علماء الوقت .

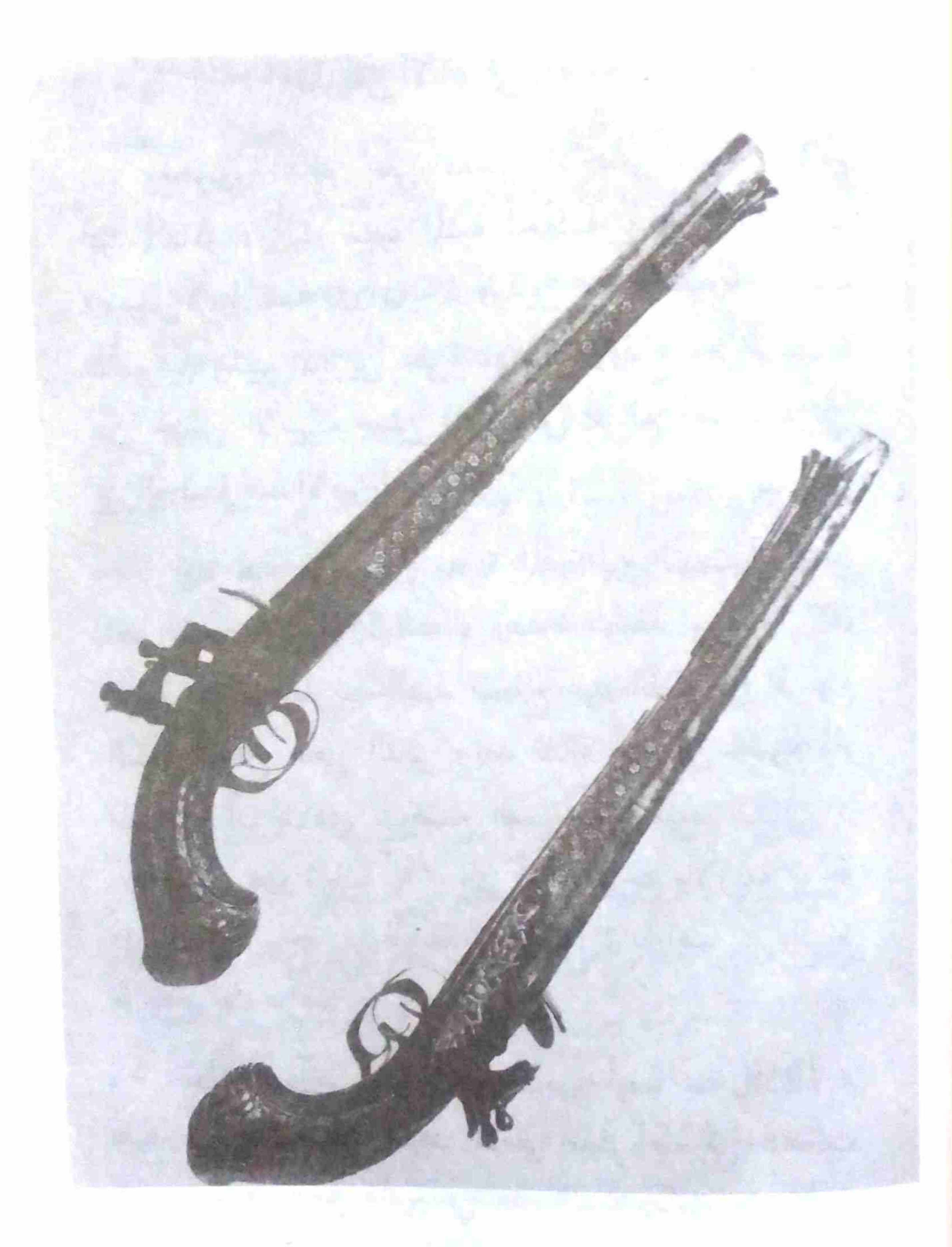
---

(4) اسم القاضي غير مذكور ، والظاهر أنه هو الشيخ محمد السعيدي ، الذي سبق ذكره .

(5) وجدنا في وثيقة أخرى بالدفتر أن الحاج الصوفي ما يزال حيًّا سنة 1255 هـ ، وأنه أصبح طاعنا في السنّ .



صورة لسيف الأمير .



نموذجان لبندقيتين في عهد الأمير .

أخبار عن الأمير في المدية :

يحتوي الدفتر على بعض الأخبار المتعلقة بالأمير عبد القادر ، أثناء تبعية المدية لحكمه ، ومن ذلك خبر وصول الأمير نفسه الى المدية ، وتبديل العملة المعروفة ، بعملة الأمير ، وتغيير الموازين على عهده . ووقوع معركة متيجة بين جيش الأمير وجيش الفرنسيس ، ثم خبر يعتبر في في الحقيقة ضد الأمير نفسه .

فقد قدم الأمير الى مدينة المدية يوم السبت 19 من شهر المحرم سنة 1253هـ ، وعبارة الوثيقة ، كهذا كان قدوم سلطان الغرب السيد الحاج عبد القادر بن المرحوم السيد الحاج محي الدين وبعد ثلاثة أيام من وصوله أمر المنادي أن ينادي بتوضيح العملة على النحو التالي : (صرف دور زيانية)[6] الى أربع بوجه والأربعة بوجه الريال ، بوجه ، فأربعة ريالات ، دراهم ، والربع بوجه بريال دراهم .

وفي خبر آخر بتاريخ شهر المحرم أيضا سنة 1254 هـ جاء في الوثيقة أن صرف الأمير المضروب في تاقدمت المحمدية قد دخل المدية في هذه السنة وذلك على النحو

---

(6) كلمة غير واضحة في النص .

التالي : أربعة في ثمن الريال الجزائري وثمانية في ربع أريال ، وجعلت فلوس المدية النحاس ، وفلوس السلطان ، اثنان في الموزونة ، وكان العكس في الصرف .

والكاتبان للوثيقة هما المولود بن محمد وعبد القادر[7] ، واسم الأمير يذكر دائما بهذه الصيغة ، مولانا أمير المؤمنين .... نصره الله .

وفي نفس السنة (ولكن بدون ذكر الشهر) تغيّرت أيضا الموازين في المدية ، بأمر الأمير ، وذلك على النحو التالي : في دخل الخضرة والصابون وغيره ثمانية وأربعون وقية ، وكذلك التين والزيت ، والسمن والعسل ، ميزانها بالرطل المذكور .

ومن أخبار الأمير وقوع معركة متيجة بين جيشه وجيش الفرنسيين ، ويبدو أن الهدف من تسجيل هذا الخبر كان اظهار مدى خسائر أهل المدية في المعركة ، وبناء على الوثيقة فان المعركة جرت بين عدو الله الكافر الفرنسيس والمسلمين ، وذلك في مكان يسمى بحوش المبدوع ، يوم الثلاثاء 24 شوال سنة 1255 هـ ، وكانت خسائر أهل المدية في المعركة (200) مائتين ونيفا ، لما حداها سور البلدة المذكور .

---

(7) لعله عبد القادر بن محمد مزيغي الذي سبق ذكره ، ضمن الكتاب .

ولكن أيام الأمير في المدية ، لم تكن كلها بركة على أهل المدية ، فقد اضطربت فيها الأحوال وتفرق أهلها هاربين الى البادية ، التنازع على المدينة ، بين الأمير والفرنسيين ، كان دواليك .

وقد سجل أحدهم (وهو مجهول) انطباعا سيئا لما حدث أثناء عهد الأمير ولكنه انطباع رجل مستسلم للقضاء والقدر ، ينتظر رحمة الله بالمدية وأهلها ، وهو على كل حال لم يمدح عهد الفرنسيين ، وكان هذا الرجل من ضحايا ما حدث في المدية من تطورات .

وفيما يلي خلاصة لانطباع هذا الرجل المجهول ، لما أراد الله القضاء على مخلوقاته المؤمنين أمر عليهم السلطان الحاج عبد القادر ، وكان على أهل المدية أن يفرغوا مدينتهم وأن يتفرق المؤمنون في البادية ، والأعراش .

لقد كانت أياما صعبة عاني فيها أولئك النازحون الى البادية من البرد والمطر والثلج ، وقد ضجّ الناس وفيهم الصبيان بالبكاء من قلة الزاد ، يا لها من أيام يشيب لها الولدان .

ان هذه الأيام كانت خلال شهر محرم ، 1256 هـ ، وقد أضاف الكاتب الذي يبدو أنه من أصول عثمانية أو من أهل التدين الاستسلاميين انه انتقل شخصيا الى

مكان يسمى (ماشطة) في السابع عشر من الشهر المذكور ، وكان في ماشطة عند كتابة هذه الوثيقة ، التي ختمها بالدعاء بحسن العاقبة والخاتمة .

ج - حالات الزواج :

لايضم الدفتر من حالات الزواج سوى حوالي اثني عشر حالة بينها حالات الطّلاق تبلغ اضعاف هذا العدد وقبل ان نحلل ما في حالات الزواج ، سن ظواهر اجتماعية واقتصادية نود أن نأتي على ذكر هذه المعلومات التي وجدناها في احدى الوثائق بالدفتر ، وهي تتعلق بانواع الطلاق بالجزائر عموما وعنوان هذه الوثيقة بالضبط هو « بيان (صدقة الجزائر) وتوضيح ذلك أنها تعالج ، ما هو مصطلح عليه في الجزائر ، من أنواع الصّداق ، وما يقابلها بالعملة ، وذلك في حالات الموت والطلاق الخ ..

ثمّ نجد هذا التوضيح الاضافي ، وهو صداق الأربعمائةذهبا الفرد بـ : 38 ذهبا وذلك تسع زياني ، مائة زيانية بوقية الجوهر ، بثمانين ذهبا ونصف قنطار الصوف بثمانية وعشرين ذهبا وذلك سبع زياني ، الأمة بمائتين ذهبا ، وذلك 50 زيانيا الحائك بـ : 28 ذهبا وذلك سبعة زيتانية ، قمطان الفضة بمائة ذهبيا وذلك 25 زيانيا .

وممّا يلفت النظر أن ثمة حالات من الأثنى عشرة انتهى ، كانت الزوجة فيها يتيمة ، ولكن تارة مع وجوب النفقة (حالتان) وتارة عدم وجوبها .

ونلاحظ أن أنواع الصداق تتوزع كالتالي :

25 دينار 6 حالات .
12 ونصف دينار فضي حالة واحدة .
400 ريال دراهم صغار......
70 ريال بوجه ....
60 بوجه .....

أمّا الحالتان الأخريان فقيمة الصداق غير مذكورة فيهما .

ومن الملاحظ في حالات الزواج أن كلها ، ماعدا أثنتين ، تخص زواج شبان يبدوا أنهم كانوا ما يزالون عند البلوغ ، ولذلك نجد العبارات التالية : مرافقة لأسمائهم ، تزّوج الولد الصغير فلان ، أو تزوج الشاب فلان وأحيانا تزوج الولد فلان .. الخ .

وفي حالة واحدة ذكر زواج غير شاب مع امرأة لها أولاد ، وفي حالة أخرى لم يذكر أي وصف يدل على سن المتزوج وفي أغلب الحالات كان الزواج بين أهل مدينة

المدية ولاسيما بين الحضر ، ومن بينهم الكراغلة ، ولكن في حالة واحدة فقط وجدنا المتزوج من البادية من دوار العزارة ، ومن بين المتزوجين بعض العساكر تذكر وظيفتهم « اليولداش » الى جانب أسمائهم وقد وجدنا حالتين لهؤلاء العساكر ، وفي حالة واحدة منهما كان وكيل الزوجة من « اليولداش » الى جانب أسمائهم أيضا .

وفي كلتا الحالتين كانت الزوجة من الكراغلة مرّة بنت انقليز ، ومرّة بنت حاجّ بتشديد الجيم وكسرها ، بشهادة زوج أمها ، طبال .

ومن العائلات المتصاهرة شلابي (شلبي) وقارة ، دنقز الكجيل ، وهناك عائلات أخرى أمثال : الغربي والحناشي ، أقليل ، الماحي ، الريغي ، ويصغر سنّ المتزوجين كان الآباء أو الوكلاء ، هم الذين يتحملون ببقية الصداق أمام القاضي .

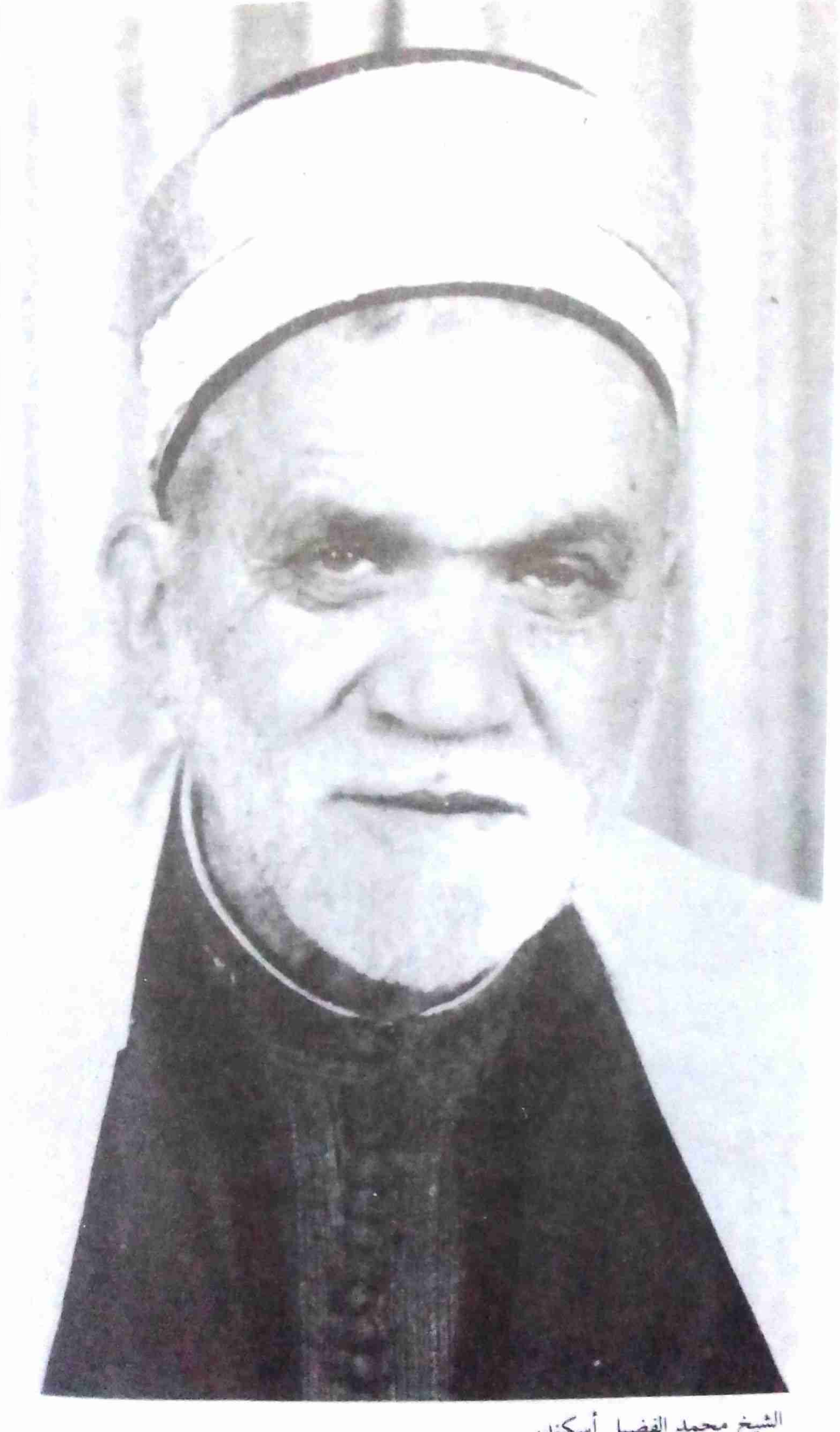
ولكن الفتيات كن أصغر سنّا بكثير فيما يبدو فهناك حالة زواج نص فيها على أن الزوج تعهد بعدم ازالة البكارة الفتاة الاّ بعد أربع سنوات ، وفي معظم الحالات كان التنصيص على أن الزوجة بكر ، وفي حالة تزوجت الفتاة اليتيمة بدون ولي ، لأنها كانت في حاجة الى النفقـة .

وقد لاحظنا أن معظم الحالات كانت لزواج فتيات يتيمات كن غالبا في حاجة إلى من يعولهن ، وفي احدى الحالات وجدنا الزوج يلتزم لزوجته بأمور منها : النفقة على أولادها بعد العقد عليها وعدم اخراجها من المدية ، وكثيرا ما يتأخر كتب عقد الزواج سنوات بعد وقوع الزواج فعلا ، وهناك حالة واحدة كانت الفتاة فيها من عائلة معروفة في المدية ، وهي عائلة الغربي ، التي تولّى أحدها الفتوى سنة 1272 هـ ، وهو الشيخ أبو القاسم الغربي ، وهي التي كان صداقها 400 ريال ، دراهم ، وكانت صنعة بعلها « السياقة » وقد وقع تسجيل العقد سنة 1255 هـ .

ولكن الزواج قد تم قبل ذلك بمدة ، وفي بعض الحالات كانت تقع عادات فاسدة ، كما جاء في احدى الوثائق بين المتصاهرين فقد أدعى أحدهم أمام القاضي أن ابنة عمه تزّوجت فلانا بدون ولي شرعي ، وبعد التأكد علم القاضي أن ذلك صحيح ولكن حاجة الفتاة الى نفقة ، جعلت الزواج شرعيا ، وأمر المدعي باسقاط دعواه ، ومع ذلك قال الزوج (صالح) المدعي ، وأما الزوجة بأن أعطي للأول ثمانية بوجو ، وللأم ثلاثة بوجو وعلق صاحب الوثيقة على ذلك بانه كان صلحا ، كما هي عادتهم الفاسدة .



الدكتور محمد بن شنب .



الشيخ محمد الفضيل أسكندر .

وتوجد حالات عديدة ، من ادعاء الإعتراض من الزوجة على الزوج ، وفي حالات أخرى كانت تدعي عليه ان لم يزل بكارتها .

وفي معظم الحالات كان القاضي يحكم بتأجيل سنة في هذه القضية ، ونلاحظ هنا أن احدى حالات التأجيل وقعت بين عائلتين من الغرب الجزائري ، (أسرة ابن هني وأسرة دحو) ، وذكر صاحب الوثيقة أن ضرت الأجل قد وقع في محكمة وهران ، وأن قاضي الأربعاء بالعطاف وافق عليه ، وسجل ذلك في الدفتر الذي بين ايدينا سنة 1249 .

د ـ حالات الطلاق :

وجدنا حالات الطلاق بالقياس الى حالات الزواج كثيرة اذ هي 38 حالة وموزعة على النحو التالي :

طـلاق	26
طلاق رجعي	7
طلاق خلع	1
طلاق مسكوت منه	4
المجمـوع	38

بالاضافة الى ثلاث حالات اعتراض ، وهي التي يحكم القاضي فيها عادة بالتأجيل سنة ، ومن ذلك حالة محكمة وهران التي سبق ذكرها .

أما الحالة الثانية فقد وقعت سنة 1240 هـ ، لشاب من قبيلة حسن بن علي .

والثانية وقعت لشاب ينسب الى باجة (الباجي) .

وفي احصاء آخر وجدنا الطلاق قد وقع في هذه الحالات :

طلاق : رجال العسكر ، يولداش انكشاري (6) حالات
طلاق : أناس وافدين على المدية (برانية) (8) حسب نسبهم
طلاق : شبان وينص على ذلك في وثائقهم (9) حالات .

وهناك حالات طلاق شملت عائلات معروفة عندئذ حضرية وكرغلية ، من أمثال : عائلة الشيخ الصحراوي الذي تولى القضاء وعائلة ابن الفخار .

وقد عرفنا أن معظم حالات الطلاق كانت بلفظ البينونة أو البتة ، أو الثلاث ، أو نحوها .

وكان المطلقون يستعملون عبارات تحرم عنهم زوجاتهم ، فلا تحل لهم الاّ بعد زواجها من آخر ، حسب

القواعد الشرعية ، وهذه بعض العبارات المستعملة في الوثائق ، هي : طالق ، وحارمة عليه ، كما حرمت مكة على اليهود ، أو هي حرام عليه في المذاهب الأربعة . أما اذا نزع الحائك الذي ظهر زوجه ، فهي طالق ، البتة ، وقد حلف أحدهم بالحرام ألا يبيت في دار صهره ، ثم بات ، فحكم القاضي بالطلاق البائن ، ويبدو أن الأزواج لم يكونوا مطالبين بتبرير طلب الطلاق ، ذلك أن الحالات تقريبا مسكوت فيها عن سبب الطلاق ، وهناك حالة واحدة ذكر فيها جنون المرأة كسبب للطلاق .
وهناك كما لاحظنا حالة واحدة للخلع ذفعت الزوجة بموجبه 22 دينارا وكانت المرأة في كثير من الحالات هي المتنازعة عن حقوقها لزوجها ذلك أن الوثائق تستعمل العبارة التالية ، بكثرة عقب عبارة التطليق وهي : وتحملت (أي الزوجة ، المطلقة) بالنفقة على الأولاد ، وما بقي بذمته من الصداق ، وكذلك هذه العبارة ، وبعد أن سلمت له في حضانه أولادها ، وما بقي بذمته من الصداق حاله وكاله ، وأحيانا تضاف العبارة التالية : عقب ما سبق : وأبرأته من جميع ما عليه من دين وغيره .

وهناك حالة واحدة نص فيها على أن الزوجة كانت كبيرة السّن ، وأم أولاد ، كماتوجد حالة واحدة نص فيها

على هروب الزوج عن زوجته بعد أن تركها عند أمه ، بدون نفقة ، ثم جاء الى القاضي مع وكيله ، فأمره القاضي بالعودة والنفقة ، على مدة الهروب ، فقال الزوج اذا لم أعد اليها فهي طالق طلقة واحدة ، وقد لاحظنا أن الزوجة هي التي تتحمل بالنفقة على نفسها ، والاولاد ، بالحضانة ، في بعض الحالات ومعنى ذلك أن مصير الأولاد ولا سيما الصغاركان سيئا اجتماعيا واقتصاديا .

وهناك حالة ، نود أن نفردها بالحديث ، وهي طلاق شخص من عائلة ، (سيدي ناجي) لزوجه التي هي من نفس النسب ، وقد جاء في الوثيقة التي يعود تاريخها الى سنة 1240 ، أن الشاب .... بقية الشيخ سيدي ناجي نفعني الله به ، طلق زوجته .. من النسب المذكور ومثل معظم الحالات ، نصت الوثيقة على أن الزوجة هنا أيضا قد سلمت له في باقي الصداق ، واحتملت له بأربعين ريالا كبيرة الضرب تؤديهم له يوم التزويج وتحمل أبوها ... لكل درك وافترقا ، الخ ...

ولا ندري الآن من هو سيدي « ناجي » الذي تتحدث عنه الوثيقة فهل هو جد عائلة سيد ناجي الذي تنسب اليه الحنقة (سيدي ناجي) أو هو رجل صالح من رجال المدية أو قريبا منها ؟

فان كان الأمر الأول فان الشاب الذي طلق زوجته في محكمة المدية يكون قد جاء من مسافة بعيدة .

هـ ـ حالات العتق وأفعال البر :

توجد في الدفتر حالات العتق أيضا ، وكذلك بعض أفعال البر الأخرى ، كالصدقات والهبات والوقف ، الخ ..

ولم نجد سوى حالتين من حالات العتق ، مع اشارة فقط الى وقوع حالتين أخريين ، والمهم في حالات العتق جميعها هي الجهات الصادرة عنها والتي كانت غالبا من رجال الدولة وأغنياء البلد .

في سنة 1239 هـ ، أعتق محمد ولد الدويك أو (الدّويك) مملوكه الذي تملكه من أحمد « صهر بن عثمان » خليفة كان ، قاصدا بذلك وجه الله ، وأشهد على نفسه بذلك أمام القاضي ، وفي سنة 1240 هـ ، أعتق أيضا حسين بن داحلي ، مملوكه أمام القاضي ، وبحضور شاهدين ، قاصدا بذلك وجه الله ، ولكن السيد داحلي نص على أن العتق لا يتم فعلا الاّ بعد أربعة أعوام من تاريخه .

أما الحالتان اللتان وقعت فيهما الاشارة فقط الى العتق ، فأولاهما حالة وفاة امرأة سبق عتقها وتوزيع تركتها

على أولادها ، وذلك عام 1255 . فالوثيقة هنا تتحدث عن أن عائشة ، معتوقة السيدة زوجة محمد بن رقية ، قد توفيت عن زوج وأبناء ، وان التركة ، قد وزعت بينهم وأن مناب احدى بناتها ، قد قبضه بناء على وصية منها ، السيد عيسى الأغواطي ، الحمامجي حرفه ، وتذكر الوثيقة أن زوج المعتوقة عائشة كان أيضا من الأغواط .

أما الحالة الثانية من حالتي الاشارة فقط الى العتق فتخص معتوقة الباي محمد الذباح ، المعروف ، بمحمد الفريرًا ، والذي حكم ولاية التيطري مدة من الزمن ، ان الوثيقة تذكر أن فاطمة ، معتوقة الباي محمد الذباح ، قد باعت غرفتين موجودتين بحومة الجامع الأعظم ، المعروفة بابن شيبون ، وان ثمن البيع 50 ريالا كبيرة الضرب قبضت منها 25 ، وتأجل قبض الباقي الى دخول الباي من المحلة ، وتاريخ هذه الوثيقة يعود الى سنة 1238 هـ

وفي نفس التاريخ 1238 هـ ، تصدقت أحدى السّيدات على ابنة زوجها بالسهمة المعروفة ، بابن حدّة ، الكائنة « ملوشن » ويبدو أن هذه الصدقة تتمثل في غرفة أودار ، لأن كلمة « السهمة » ، غير واضحة المعنى هنا . تعليق كلمة السهمة . في عرف أهل المدية قطعة من الأرض

ومن أفعال البّر ما قبضه أحد الأشراف ، وهو ادريس بن عبد القادر الشريف ، من يد قاضي الوقت وهو الشيخ محمد السعيدي بن أبي زيان ، الذي سبق ذكره ، والذي قلنا انه تولى القضاء في زمن تبعية المدية للأمير عبد القادر ، أي سنة 1254 هـ ، والذي استنجد بالسلطان سليمان المغربي ، وشيخه محمد العربي الدرقاوي ، ولكنهما خذلاه ، بعد تأييده فترة ؟.

ان الوثيقة لا تتحدث عن ذلك ، وتكتفي بالحديث عن الهبة أو العطفة ، التي تعطف بها عليه الجد السراة ، الذين لم يذكر اسمهم في الوثيقة أيضا ، ومهما كان الأمر ، فها نحن نذكر ما قبضه ادريس بن عبد القادر الشريف من يد القاضي محمد السعيدي في شهور مختلفة من سنة 1254 هـ .

1) أربع فردات « أزواج مسايس ذهبا .
2) ستة دورو صرف الجزائر ، وزوج أنصاف ذهبا ، وزوج أرباع ذهبا سكة مصطفى باي ، (8) . وقرطين من الذهب مع حضور العاطف أي الواهب هذه المرة .

---

(8) الظاهر أن المقصود هو الباي بومزراق ، آخر بايات التيطري وبعد الداي هو الصحيح فتكون العبارة سكة مصطفى داي وهو باشا الجزائر الذي توفي سنة 1805 ، لأن البايات لم يسكو العملة حسب علمنا .

3) قرطين من الذهب مع حضور العاطف أيضا .

ومماً تجدر ملاحظته بشأن وثائق الدفتر ، الذي نحن بصدده ، أنها لا تتحدث عن الأوقاف « الأحباس » الاّ نادرا ، وهذا في الواقع يثير الاستغراب ، لأن العهد العثماني في الجزائر كان عهدا كثرت فيه أعمال الخير من هذا الوجه ، فالأوقاف كانت توقف على جهات عديدة ومن بينها جهة الفقراء والمساكين والمساجد والزوايا ومكة والمدينة ، ولكنا لا نكاد نجد من ذلك ، بالعكس وجدنا شخصا تراجع فيما أوقف واستعاد الوقف ، والوثيقة التي وجدناها بهذا المعنى تتحدث عن أن رجلا كبيرا السّنّ يسمى أحمد بن قار حسن ، حضر أمام المحكمة الشرعية بالمدية وأشهد على نفسه أمام القاضي أنه رجع فيما كان قد أوقف ، وذلك داره وجنانه (بستانه) وصيّر ذلك ملكا له ، وقد وقع هذا بتاريخ سنة 1241 .

ويبدو أيضا أن حالة الأوقاف لم تكن جيدة .

فالقائمون عليها لم يكونوا مهتمين بها الاهتمام اللازم ، وقد وجدنا وثيقة تتحدث عن أن وكيل الوقف «دون تحديد» السيد الحاج اسماعيل لزنلو ، حضر عند القاضي وأشهد أن أحد القائمين معه على الوقف وهو محمد بن علشى ، لم يخدم سنة 1249 هـ ، مدة ثلاثة

أشهر ، وأنه خلال السنة الموالية لم يعمل سوى شهرين ونصف .

ويدخل في أفعال البر طبعا ، النفقة على الربيب فقد وجدنا وثيقة تذكر أن أحدهم حضر لدى القاضي أحمد بن الحاج سلامة وأشهد أن ما أنفقه على ربيبه في الماضي وفي المستقبل هو لوجه الله وصلة الرحم ، وأن عليه ثمانية ريالات بجه بكراء الجنان في المستقبل وكان ذلك سنة 1240 .

غير أن رجلا آخر تراجع عن فعل الخير لظروف أخرى ففي نفس السنة حضر أحدهم لدى القاضي وأخبره أنه تراجع عن نفقة البنت فلانة ... وأن الرجوع واقع على أبيها ، لأنه هرب عنها وتركها عنده دون أن يترك لها شيئا .

ويمكننا أن ندخل في أفعال البر ما يدفعه الناس باسم الجهاد ، أو باسم دفع الغريب عن البلاد . ولم نجد عن ذلك الا الشئ القليل ، فهناك وثيقة تتحدث عن أولاد رابن خلفة ، قد دفعوا أربعة وتسعين دورو ، في دفع «اصيبيول» وهي العبارة التي فهمنا منها نحن «لأنها « اصيبيول » وهي العبارة التي فهمنا منها نحن « لأنها غيرواضحة » انهم تبرعوا بها لدفع الاسبان عن الجزائر .

غير أن تاريخ الدفع لم يذكر معه سوى الشهر ، وهو أواسط رجب فمتى كان ذلك .

و ـ حالات التجارة والعقود والمنازعات

وفي الدفتر عدة حالات لانتقال الأملاك بطرق مختلفة الشراء ، والكراء ، والشفعة ، والشركة ، الخ ..

كما أن هناك بعض الحالات القراض ، والعقود ، والمنازعات حول الأرض والدور والحيوانات ، ونحوها وكان الكتّاب يسجلون الوثائق بضيع جافة تقليدية ، لاتساعدنا كثيرا على فهم ظروف انتقال الأملاك ، ونهاية المنازعات ، وبالاضافة الى وجود ذلك بين المسلمين ، وجدنا في هذا القسم أسماء بعض الذميين من اليهود بالنسبة للبيع ، وجدنا منه حالات عديدة ، وقد وقعت في تواريخ مختلفة من 1238 الى 1253 .

ونلاحظ كذلك أن الأثمان اختلفت بشكل واضح بين ما يباع داخل المدينة وما يباع خارجها ، فقد اشترى أحد الموظفين البارزين حوشا (ضيعة) في المكان المسمى تبحرين بثمن عال ، وهو ألف ريال واحدة ومائة ريال ، وجميعها من النوع المسمى كبير الضرب ، والباعة هم ورثة الحاج بن علي ، والمشتري هو السيد دل علي (دالى؟)

وكيل خرجة القصبة كان ولكن البائع لم يقبض الثمن كله دفعة واحدة ، اذ كان بعضه معجلا و بعضه مؤجلا .

وفي احدى الوثائق أن الشاب محمد بن الحاج الزروق بن أحمد باي ، قد باع النصف في جميع عقاره . لأولاد الزواوي ، دون ذكر السنة ولا مبلغ البيع ، وهناك حالات أخرى ، ليست في مستوى ما سبق ، ولكن نلاحظ أن بعض أطراف قضية البيع مع الكراغلة أيضا فقد باع أحدهم دارا موجودة بتلال بني عائشة بثمن قدر بـ : 300 (ثلاثمائة) ريال ، الكل دراهم صغار . ومما يلاحظ هنا أن البائع أضيف الى اسمه نسبة التلمساني .

ويبدو أن الحاج الصوفي بن جانين (قانيف) الذي سبقت الاشارة اليه على أنه كان من حكام المدية سنة 1244هـ والذي أصبح طاعنا في السنّ سنة 1253 ، كان قد باع داره الى الجاج الجيلالي الدباغ ، حرفة ، كما تقول الوثيقة ، ثم باعها هذا ولكنه لم يأخذ ثمنها دفعة واحدة ، فالوثيقة تحدثنا ان الشيخ الجيلاني قد جاء الى القاضي ليقبض بقية ثمن الدار ، الفاضلة على أرباب الديون وذلك «9» ريالات بوجه ونصف ريال ، ولكننا لا نعرف كم ثمن بيع الدار كله ، وقد سبقت الاشارة الى أن معتوقة الباي

محمد الذباح قد باعت غرفتين في وسط المدينة بخمسين ريالا كبيرة الضرب .

أما حالة البيع الوحيدة التي وقعت بين مسلم وذمي ، فهي أن أحمد بن جعيفر ، باع الى شوعة ولد سالوم لعنهُ الله ، كما تقول الوثيقة ، جميع الدار الكائنة بقاع الصور « السور » والتي ثمنها 600 (ستمائة بوجه على أن يكون المقبوض المعجل 300 والباقي 300 .

وهناك حالة الشفعة ، دون أن نعرف ثمن الشراء فيها بالضبط ، فالوثيقة هنا تقول أن أحدهم ، وهو عبد القادر بن بركان ، فضر لدى القاضي مع شاهديه ، وأخبره أنه أخذ بالشفعة البحيرة الموجودة بالدخلة ، وقال أنه اشتراها من صاحبها الدقهوشي ، والمهم هنا أنه أخبر القاضي بأنه أخذ البحيرة المذكورة ، على مذهبه النعماني ، (أي مذهب الامام أبي حنيفة النعماني) وانما جاء الى القاضي الذي يظهر أنه كان مالكيا[9] ليخبره بما حدث فقط .

---

(9) سبق لنا أن ذكرنا أن سنة 1241 التي وقعت فيها الشفعة المذكورة قد شهد موتى ثلاثة قضاة وهم : أحمد بن الحاج سلامة ، ومحمد المحجوب ومحمد بن الخلفة ، ولا ندري منن منهم من جاء ليخبره بذلك .

وتوجد حالة بيع لاتستحق اهتماما خاصا وهي بيع أحد العساكر « اليولداش » سنة 1240 هـ ، لفرسه دون أن نعرف ثمن الفرس ، بينما نعرف من ناحية أخرى ، أن ثمن الحمار في المدية سنة 1252 كان ثمانية دنانير.

ويشتمل الدفتر أيضا شهادة ، شهد بها مجموعة من الشبان أمام القاضي اذ قالوا أنهم حضروا محاسبة شاب مثلهم ، وهو أحمد ولد يتو الانكشاري مع زوجة خاله ، فاطمة بن غرنوط ، على ما كان تحت يدها ، يعمل فيه الشاب المذكور ، على أساس القراض ، والمبلغ هومائة ريال كبيرة وذلك سنة 1239 هـ .

وهناك وثيقة منقولة من الأصل ، للحاجة اليها تتعلق بقبض أحد الميزابيين لمال ، من أحدى السيدات للعمل به على وجه القراض ، وذلك بتاريخ 1237 هـ ، ولكن نقل الوثيقة حصل بتاريخ 1241 هـ ، وأمضاها : على بن سيدي عمر الميزابي ، ثم اليزكن من فرقة باب محمد ، قد أشهد على نفسه ، أن بماله وذمته ، ما قدره ألف ريال ، واحدة و 300 ريال الكل كبير الضرب ، والعدد كله جزيري (جزائري) ذهبا وانه قبض ذلك من السيدة فاطمة زوجة السيد أحمد خوجة مخزن الزرع ، وهو يعمل بهذه النقود على وجه القرض على أن يحصل من الربح يكون بينهما مناصفة سوية .

وفي هذا الصدد اشترك أحد العلماء وهو محمد المغربي في الحرث مع شريكه محمد بن عبد الله الهواري واتفق معه على أن ينوب العالم المذكور ثلاثة أخماس ، خمسان لثوره ، وخمس لفرسه ، والباقي لشريكه ، وقد وقع ذلك سنة 1243 هـ .

ويضاف الى ذلك انتقال عدد من الوثائق ، (العقود) المتعلقة بالأملاك ونحوها ، فهذا ابركان بن رامول قبض سبعة وعشرين وثيقة من يد السيد المولود « الذي يبدو أنه كان أحد كتاب الوثائق حسبما جاء في الدفتر وهي الوثائق الذي كانت موضوعة عند أحمد بن رحال على وجه الحظ لاولاد أبو كريشة ، كما أخذ أحد الشبان من عند أحمد بن الحاج الكجيل ، وثائق البلاد ، التي اشتراها ، وعددها 12 وثيقة سنة 1240 ، كذلك تسلم أحدهم مجموعة من الوثائق من عند محمد ومحمود ولدي ابن شرقية ، وعددها خمس عشرة وثيقة ، وهي تتعلق بالحوش. بالاضافة الى سبع وثائق تخص البحاير (جمع بحيرة) ووثيقة تتعلق بسدس في دار بالجزائر ، وسبع عشرة وثيقة تخص بساتين وغيرها ، وجملة ما أخذه من الوثائق اذن أربعون وثيقة ، وذلك سنة 1241 هـ .

أمّا الكراء : فلم نجد منه سوى ثلاث حالات هي كراء دار بثمن 10 ريالات بوجه ، سنة 1242 هـ .

وفي جميع الحالات توجد أسماء المكترين والمكترى منهم.

والمنازعات كثيرة نسبيا ، وأسبابها مختلفة وقد سجل كاتب المحكمة حالة ذكر فيها أنه وقعت مشاجرة بين اثنين على أرض تقع في مكان يسمى بلاد أبو زيد ، اذ منع أحدهما الثاني من غراستها ، مدعيا أنه يغرسها هو الآن في سبيل الله ، وأنه حين يذهب منها يغرسها له ، وشهد على ذلك الشهود ، كما تخاصم اثنان على دار فقال المدعى عليه ، أن الدار مبيعة بيع شيبا ؟، وطلب المشتري دراهمه ، وكان حكم القاضي ، وضع الدار عند السمسار ، ومهلة شهر ، فان أتاه بدراهمه ، قبل ذلك ، فداره بيده ، والاّ بيعت الدار ، ولم تذكر الوثيقة ثمن البيع وانما ذكرت التاريخ وهو سنة 1246 ، ولاحظت أن أحد المتخاصمين كان دباغا بالحرفة.

ومن المنازعات كذلك أن أحد العلماء ، وهو على بن سيدي المزاري ، الذي قلنا أنه تولى القضاء أيضا ، قد اشترى فرسا حمراء اللون من شخصين مذكورين في الوثيقة ، فوجد فيها ما يستحق الرجوع عليهما ، ولكنه حين جاء بدعوته ، وجد البايعين قد سافرا ، الى الغريا (الجزائر) معا.

وتوجد حالتان ، ذات طابع خاص ، فقد قالت احدى الوثائق أن فلانا الذي يشغل خادم باب المحكمة ، وقف ونادى أنه استشفع ، وذلك بحضور بعض الشهود ولم تفصّل الوثيقة ما اذا كان الاستشفاع ، بطلب الشفعة ، أو لطلب الشفاعة .

أمّا الحالة الثانية : فهي تضارب اثنين ، ثم تصالحهما ، أمام المحكمة ، اذ دفع الضارب شاة ونصف دينار فضة ، الى المضروب ، واذا كان التشاجر بين الناس شائعا ، فانه بين الأم والابن ، أمر غير شائع ، ولاسيما اذا كان الابن من الحجاج ومن المسؤولين ! ، فهذا الحاج اسماعيل الزغلو ، الذي سبق ذكره على أنه كان وكيلا للأوقاف ، قد تشاجر مع أمه وخرج من دارها ، ودفع لها من داره أمورا مثل القمح والزيت ، وغيرهما ، وشهد على ذلك كبار القوم ومنهم محمد الخديم ، الذي طالما سجل الوثائق بيده في الدفتر الذي ندرسه ، وأحمد الشقماقجي حاكم المدينة ، وعلى مانشلي وباشا بولكباش ، الذي يبدو أنه من العسكر ، المتقاعدين الخ .. لقد وقعت هذه الحادثة سنة(1242 هـ) .

أمّا آخر المنازعات ، فهو ذلك الذي وقع بين أحد المسلمين ، وذمي ، يبدو أنه كان من اليهود ، والقضية تافهة في حد ذاتها ولكن لابد من الاشارة اليها ، لأنها

على الأقل تدل على احتراف اليهود احدى الحرف ، في المدية ، وهي الصباغة ، وذلك سنة 1253 هـ .

والوثيقة تقول أن أحد المسلمين « محمد بن مجبر » قدم الى المحكمة بشيْ من الغزل المصبوغ ، وطلبه الذمي « دون ذكر اسمه » في اجرة الصّباغة ، ولكن المسلم لم يجد الدراهم ، الذي يدفعها له مقابل ذلك مدعيا أن الغزل ليس له ، وانما هو لرجل آخر ، وتقول الوثيقة أن المحكمة وزنت الغزل ، فوجدته رطلين ونصفا ، ولكن الوثيقة سكتت عن الحكم الذي اصدرته المحكمة بهذا الشأن .

ز ـ حالات تقسيم الديات والتركات ونحوها :

في الدفتر ثلاث حالات لتقسيم الدّية ، أولاها : ديّة السيد عمار الذي كان دلالا ، بالحرفة ، فكان مجموع ديّته مائة ريال واحدة ، 93 ريالا دراهم صغار ، وكان عليه دين طاريْ ، ولذلك قسمت الدّية على طريق المحاصة ، كان ذلك سنة 1254 هـ .

ولم تتحدث الوثيقة عن مصدر الدّية وحيثياتها وبعد سنة من التاريخ المذكور ، سجلت حادثة ديّة أخرى بدون تفاصيل كثيرة أيضا .

والملاحظ في هذه الدّية ، أن توزيعها ، وقع بين اليتامى ، ولكن بيت المال اشترك في نصيب منها .

وهناك تقسيم لدية أخرى ، يهمنا من عدة وجوه الوجه الأول ، تدخل بعض السلطات العليا فيه ، مثل باي الغرب الجزائري ، الذي يبدو أن القتل وقع بمنطقته، والوجه الثاني الطريقة التي قسمت بها الدّية ، ولاسيما أخذ كاتب الوثيقة وقاسم الدية ، نصيبهما منها .

وهذه هي خلاصة الوثيقة المتعلقة بالدّية المذكورة ، مات قويدر بن الحصيني ، دون ذكر المكان ، عن أبيه وأمه وزوجه وأولاده ، وبعث حسين[10] باي الغرب ، بدية على القاتل بلغت مائة ريال واحدة بوجه .

والقاتل هو لحبيب الغربي ، وقد وزعت الدّية على النحو التالي :

$\frac{2}{6}$ لأبيه ، 45 ريال دراهم صغار.

$\frac{2}{6}$ لأمه 45 ريال دراهم صغار.

---

(10) المعروف أن باي الغرب عندئذ هو حسن باي وليس حسين .

$33 \frac{6}{8}$ ، أي الثمن لزوجه ، وهي بنت الفلزيان[11] .

16 ، ريالا للبنت .

96 ، للبنين الثلاثة $32 \frac{1}{4}$ لكل منهم .

21 ، لكاتب الوثيقة وقاسم الدّية .

$32 \frac{1}{4}$ لكسوة الربيب « مثل أحد البنين » .

9 ، لفدية الحاج عبد القادربن سيدي سليمان .

المجموع : 300 دراهم « هي مائة ريال بوجه » .

وتاريخ هذا التقسيم هوسنة 1244 هـ

وقد اشتمل الدفتر على عدد حالات تسجيل التركات وتوزيعها ، وفي أحيان كان يكتفي بتسجيلها فقط ، وكان بعض التركات ذات قيمة تافهة ، فهذه تركة المرحوم ساعد الجزيري (الجزائري) الذي كان يمارس حرفة التجارة ، قد بلغت ألف ريال ، واحدة ، ومائة ريال وأربعة أريلة ونصف ، ولكن كان عليه دين بلغ 336 ريالا ،

(11) كلمة (باي) غير واضحة في الوثيقة ، وتكاد تقرأ « يحاح » ولكننا اخترنا باي لوجود هذا الاسم في نفس الفترة .

وذلك سنة 1250 بينما لا ندري (أي بالضبط ، تركة المرحوم محمد بن عبد القادر الذي كانت حرفته السراجة ، وكل ما تذكر الوثيقة عنه أن الغرماء قسموا متروكه فيما بينهم على طريق المحاصة ، ولكننا نعرف أن كراء داره بلغ 48 بوجه ، كما أخذت أوقاف الحرمين ، نصف بوجه ، من تركته وكان ذلك سنة 1252 .

وتوجد حالات لاتسجل فيها التركة كاملة ، ولكن يسجل فيها فقط ، نصيب أحد الورثة ، فتذكر الوثيقة أن الوارث قد قبض نصيبه ، وهوكذا ، فهذا « ابن آقليل » قبض نصيبه من إحدى التركات ، وهو خمسة ريال بوجه ، سنة 1242 هـ .

وهناك تركات ليس فيها دراهم أصلا ، وانما هي مجموعة من الأثاث البالي ، والماعون والملابس ، ونحو ذلك ، فهذا متروك أحدهم « عمر بن عمرو » عبارة عن حياك وزرابي ومعز ، وهذا متروك عبد الرحمن القزادري عبارة عن سروال وغليلة وصدرية وعباءة ، الكلّ من الصوف الخلق ، بالاضافة الى سراج فخار وحنبل صغير وندبية وبابوج وقفة دوم الخ .. وكان ذلك سنة 1242 هـ .

بالاضافة الى ذلك نسجل هنا متروك بعض الأشخاص الذين لم يكونوا في الظاهر من أهل المدية الحضر ، تركة

عمر المسيلي سنة 1246 هـ ، وطريقة توزيعها على اقاربه وتركة عباد المعداوي ؟ نسبا وذلك في زمن القاضي الحاج محمد بن الخلفة سنة 1242 هـ ، وتركة سي علي القسنطيني الذي تصفه الوثيقة بـ « الخيال » ومبلغ تركته 18 ريال دراهم سنة 1254 هـ .

وفي الدفتر عدد من المقبوضات التي تسلمها أصحابها بالمحكمة نفسها من ذلك ما قبضه أحدهم « سي مسكين » من ثمن البلاد التي أخذت منه بالشفعة ، وهو 38 ونصف بوجه ، وذلك سنة 1242 هـ ، وما قبضه محمد بن تركية ، وهو 25 ريالا ، دراهم صغار ، سنة 1245 هـ ، دون ذكر لطريق انجرار ذلك اليه ، وما قبضه عن بن القرشي ، على سبيل البشارة ، من القائد أحمد بن سلام ، وهو أربعة دنانير ، وأخيرا ما قبضه عبد الله الزنيخري نسبا ، نيابة عن ابن عمه ، وهو أربعة ريالات ونصف بوجو وموزونتان وذلك على يد القاضي أحمد بن الحاج سلامة سنة 1239هـ، ولكن الوثيقة لا تذكر أيضا طريق انجرار ذلك الى ابن عمـه .

ي ـ أخبار متفرقـة :

ونختم الحديث حول ما جاء في الدفتر من معلومات بالاشارة الى وقائع لم نجد لها مكانا فيما صنفناه من

موضوعات ، من ذلك تسجيل وقائع الزلزال الذي حدث سنة 1240 هـ ، بالبليدة ، فقد سجل ذلك في الدفتر على النحو التالي : ضربت الزلزلة في يوم 12 رجب ، وانهدمت البليدة ، وكان يوم المدرجة على الرابعة ساعة كذا ... من سنة 1240 هـ ، جاء فيه : وقعت الزلزال عند الزوال ، يوم 14 صفر ، كما سجلت تقييدات عن السنة الكبيسة وهكذا ، وابتداء من سنة 1243 ـ 1244 ـ 1246 ـ 1247 ـ 1248 ـ 1249 ـ 1250 ـ 1253 ـ 1254 .

س ـ استنتاجات

مما سبق يفهم أننا اكتفينا بعرض وصفي لدفتر محكمة المدية ، في الفترة التي أشرنا اليها ، وهي من أواخر العهد العثماني الى فترة الأمير عبد القادر ، أي من حوالي سنة 1238هـ الى سنة 1255 .

وقد أكتفينا كذلك بعرض القسم الأول من الدفتر الذي قلنا أنه يحتوي على قضايا الأحوال الشخصية والمعاملات ونحوها .

أما القسم الثاني منه الذي يحتوي على تسجيل النشاط العسكري في عهد الأمير بالخصوص ، فقد أجلناه الى مناسبة أخرى ولم نلجأ الى دراسة تحليلية ، لاقليم التيطري ، ومدينة المدية ، في العهد المذكور ،

لأن ذلك يخرجنا عن موضوعنو ، وهو تقديم محتوى الدفتر الى الباحثين ، ولأنه يجعل معلومات الدفتر ، حينئذ جزءا فقط من المعلومات التي تقدمها المصادر الأخرى وهذا ليس من هدفنا الآن .

ويلاحظ من المعلومات التي وردت في الدفتر.

ان المدية كانت مدينة نشطة ، تجاريا ، كانت تشكل مجتمعا حضريا ، في أساسه ، ولكنه مجتمعا خليطا من المواطنين ، فيهم رجال السلطة ، والتجارة ، والعلماء ، وأصحاب الحرف والجنود ، وكان للمرأة دور في الاقتصاد أيضا ، كما تدل الوثائق المتعلقة بالقراض ، كما كان لليهود دور ضئيل في التجارة .

ونلاحظ تعدد حالات العتق ، وقلة المنازعات والترويج في سنّ مبكرة ، وتعدد حالات الطلاق الذي كان أغلبه بائنا 26 حالة من مجموع 38 حالة .

وفي عدد من الاحصاءات المستخرجة من الوثائق وجدنا أن الوظائف الرسمية بالمدية عندئذ لاتكاد تخرج عن هذه ، وهي تسعة (9) الباي ، المفتي ، القاضي ، « الحنفي والمالكي » ، الخوجة ، وكيل خرجة القصبة ، خوجة مخزن الزرع ، وكيل الحبس ، (الوقف) ، القائد خادم باب المحكمة .

أما أصحاب الحرف فكان أحصاؤهم كالتالي :

وهم ثلاثة عشر (13) ؛

الخيال ، السياف ، البناي ، (البناء) الحداد ، الخياط النجار ، الحمامجي ، السمسار ، الدباغ ، الصياغ ، الدلال ، السراج ، المداح .

ونعرف من الوثائق أن الحمامجي كان من الأغواط ولكن ليس هناك ما يدل على أن جميع الحمامات كانت بأيدي أهل الأغواط ، بينما ذكرت حرفة الصباغة مرتبطة بأحد اليهود ، غير أن هذا لايعني أن جميع الصّباغين كانوا من اليهود ، كذلك أثبتت الوثائق وجود عدد من « البرانية » الذين ينسبون الى بلدانهم الأصلية بعد ذكر أسمائهم وقد وجدنا من ذلك أكثر من (13) ثلاثة عشر حالة ونسبة وهي كالتالي :

النحاسي الأغواطي ، وكذلك (الأغواطية) المسيلي ، الميزابي ، البيزكني الجزيري (الجزائري) ، التلمساني ، الباجي ، المازوني ، الزنيخري المعداوي ؟ ، الريغي ، الزواوي ، القسنطيني .

وبين هؤلاء من كان عالما ، ومن كان تاجرا ، ومن كان صاحب حرفة ، الخ ... كما تدل عليه الوثائق ، وهناك ألفاظ أخرى توحي بالنسبة الى أماكن أخرى ، خارج

المدية ، ولكننا غير متأكدين منها مثل الاشارة الى عائلة سيد بن ناجي ، والذي قلنا أننا لاندري ما اذا تعود الى عائلة الخنقة المعروفة ، ومثل الانجشاري التي يبدو أنها نطق في الانكشاري ، وفي هذه الحالة تصبح نسبة الى فئة العسكرية المعروفة .

أما العبارات العسكرية التركية ، وألقاب الكراغلة ، فتوجد بكثرة في الوثائق التي تعرضنا اليها وهي من ذلك : الباي ، بولكباش ، الانكشاري ، اليولداش ، قوجه باش ، قاردنج ، لزغلو ، قار حسن ، قارة دنقز ، ابن غرنوظ ، ابن دالي ، الخوجة ، الشقماقجي ، الخ ..

وأحيانا يذكر اليولداش برقمة العسكري .

ويبدو من أسماء القضاة ، والمفتين ، أن فئة العلماء كانت من الحضر الأصليين ، ومن الأندلس ، ومن ذلك البصرى الصحراوي ، سلامة ـ خلفة ، السعيدي ، المازري ، الفخار ، الصوفي ، المحجوب الخ ..

وتجدر الاشارة والملاحظة أن الدفتر لايكاد يضم وثائق عن الوقف لأغراض خيرية كانت شائعة في العهد العثماني بالجزائر ، سواء الوقف على المؤسسات ، مثل الخيرات ، ومكة وللمدينة والأشراف ، والأندلسيين والمساجد والزوايا أوالأفراد ، مثل العجزة ، والفقراء ونحوهم .

بالعكس فقد وجدنا تراجعا من أحدهم عن وقف كان قام به كما وجدنا شكوى من أحدهم ، بأن مساعدة لاتؤدي واجبه ، نحو الوقف الموكل اليه .

كما أن الملاحظ عن التجارة ، أن الوثائق لم تسجل حالات الأسواق ، والتعامل مع المدن والأرياف المجاورة ، ولا صادرات وواردات المدينة ، حقا ان الاشارات ، الى العملة المتداولة كثيرة ، ويبدو أنها متنوعة ، وتثير الاضطرابات عندنا اليوم ولكننا لانعرف منها حالات ارتفاعها وانخفاضها ، وقيمتها بصفة عامة ، ان أسماء العملة ، تشوش الذهن لغير المعاصرين والعارفين وهذه أسماؤها ، حسبما هو في الوثائق :

الزياني ، المدنونة ، الريال .. (وفيه الكبير الضرب ، والريال الواحد ، والريال الصغير الضرب الفلوس الدورو ، البوجه ، الدراهم الخ ..

بالاضافة الى العملة الذهبية ، والعملة الفضية ، والعملة النحاسية . كما أن هناك عملة الباي مصطفى بومزراق ، أو الداي مصطفى ، وهو الأولى ، وعملة الجزائر ، ثم عملة ، الأمير عبد القادر الخ .

ان قناعتنا بأن دفتر محكمة المدية يحتوي على معلومات هامة ، تخص مدينة المدية ، والجزائر عموما

وأواخر العهد العثماني ، هي التي دفعتنا الى تقديمه الى القراء على هذا النحو ولعلنا قد وفقنا في ذلك .

* * *


INFANTERIE REGULIERE D'ABD - EL - KADER

لباس تقليدي لأحد جنود الأمير .

عهد التحرير

دقت ساعة الحق ، وانطلق الشعب يدك ويحطم كل قيد ، ولو كان من ذهب ، وتجاه هذا التحدي حنّ جنون فرنسا وجندت كل طاقاتها للقضاء على هذه الثورة العارمة المحكمة الحلقات والتنظيم ، ووراء حركة منظمة واحدة ، ألا وهي جبهة التحرير الوطني .

وهنا فتح الشعب الجزائري صفحات جديدة ليكتب عليها بدمه القاني أروع صفحات سجلت في العصر الحديث .

والمدية كانت في طليعة من لبي النداء والتحق أبناؤها وشبابها ، بركب حركة التحرير ، واعتصموا بالجبال الحصينة المنيعة ، وكبدوا العدو خسائر فادحة في الأرواح والعتاد ، وكانت المدية نقطة اتصال بين الغرب والجنوب والعاصمة ، ولعب موقعها الاستراتيجي دورا هاما في معركة

التحرير ، وقدمت على قلة عدد سكانها بالنسبة لغيرها من المدن الكبرى أكثر من ألف وخمسمائة شهيد .

وما من عائلة في المدية الا واستشهد منها عدد من الأفراد يكثرون أو يقلون حسب العائلة ، وبعض العائلات استشهد منها ثلاثة عشر من خمسة عشر ، ولذا يجد السائح كل طرقاتها وأنهجها ، بأسماء الأبناء والأخوة ، وأقسم الجميع أن لا يتشحوا بالسواد ، ولا يظهرون الحزن والجزع ، واذا سمعت عائلة بأن ابنها استشهد ، تملأ الفضاء بالزراغيد ، وهنا تيقن الخصم بأن الموت أصبح لا يرهب ، ومن أصبح الموت لا يرهبه فالحياة تصافحه والنصر يلاحقه ، « ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز » صدق الله العظيم .

وأصبحت المدية داخل أسوار شائكة ، وستار حديدي والحراسة مشددة ، وبالرغم من كل ذلك ، يدخل الفدائي وينفذ العملية وكثيرا ما يخرج سالما ، ناجحا منتصرا .

وتجند الشعب بجميع طبقاته ، والتلاميذ مع صغر سنهم ، التحقوا مع اخوانهم في الكفاح ، ومن ثانوية واحدة استشهد منها ما يزيد على الثمانين ، وهي ثانوية الدكتور محمد بن أبي شنب .

وتصديقا لهذا ، هو ما كاتبني به الصديق الأديب

شاعر المدية ، محمد الدراجي ، في التحاق أبناء المدية بالثورة والتضحية في سبيلها . وهذا نص الكلمات التي كاتبني بها ذلك الصديق .

الأخ محمد المختار اسكندر :

هاتان البيتان من مطلع قصيدة طويلة جادت بها القريحة ، عندما استفحلت نيران الثورة في كل مكان متأثرة بالموقف البطولي الذي أجج شعلة الكفاح ، ودفع نخبة من فتيانه الى أن ينقطعوا عن الدرس ، ويلتحقوا بالثورة ليحملوا راية التحرير ، فلبوا واجبهم الوطني ، وفارقوا ثانوية إبن أبي شنب الى الأبد .

وأعتقد أنها مناسبة سارة ، تدل على تعلق الأبناء بعظماء الأباء وهي هذين البيتين :

دو بيننا صوت الكفاح ينادينـــــــــــا
فسرنا الى حمل السلاح ملبينـــــــــا
ستكتب تحرير البلاد دماؤهـــــــــا
ونبذلها باسم « المدية » راضينـــــــــا

وكدليل على الاستماتة والتضحية والفداء ، عزيزي القارئ ما أقدمه لهذين القصتين حتى تدرك جيدا مدى

الشجاعة والخطورة لعمل الفداء في المدية وخاصة مدينة المدية أثناء حرب التحرير.

وهي عملية فدائيةجريئة في مدينة المدية وهي أخطر عملية فدائية أثناء حرب التحرير قام بها الشهيد مصطفى كاديك.

ان هذه العملية الجريئة ، لها أهمية خاصة بالنسبة للشخص المنفذ فيه حكم الاعدام من طرف جبهة التحرير الوطني ، ومن تنفيذ هذا البطل الشجاع ، والمجاهد الجريئ والشهيد فيما بعد في معركة التحرير ، ولست أقلل من أهمية أبطالنا الميامين ، وفدائينا المجاهدين ، في كل أنحاء الوطن ، وعلى جميع الجبهات والولايات ، وكم من أعمال بطولية نخشى عليها من الضياع مع مرور الزمن.

لأن ثورتنا كانت رائعة في الاستماتة والاستبسال في ساحة الشرف ، وفي سبيل تحرير الوطن المفدي.

ولتدرك عزيزي الشاب ما قدمت بلادك من البطولات والتضحيات . وعلى الأقل تتعرف على بعض أبطالنا ومجاهدينا المغمورين ، ونعترف بمجهوداتهم الجبارة في تخليص الوطن من براثن الاستعمار البغيض ؟.

فلولا أولئك الأبطال والصمود في وجه الطغيان

وتظافر الجهود والاستماتة في أداء الواجب ونكران الذات ، في بعض الأحيان .

لما تحرر هذا الوطن الغالي العزيز فمن هذا الجانب يجب التعريف بالثورة ورجالها الميامين وشهدائنا الأبرار .

حتى تبقى للأجيال القادمة تأخذ منها العظة والعبرة ، والقدوة الحسنة لأبائهم وأجدادهم ، واخوانهم الذين ضحوا في سبيل هذا الوطن بكل‌عزيز وغال وتركوه أمانة في أعناقهم ليحتفظوا بالأمانة المقدسة والتراث العزيز الغالي ، ولا أخالهم يظنون ، أن هذا الاستقلال كان سهل المنال والحرية كانت صدقة ! تفضل بها العدو ، على هذا الشعب لا أخالهم يظنون ذلك بل هي نتيجة باهضة التكاليف ، وأنهار من الدماء الزكية ، والعرق والدموع . ونتيجة حرب ضارية ، ذامت سبع سنوات ونصف ، ومن السهل التلفظ بهذه الكلمة ، سبع سنوات ونصف ! وما أثقلها في الواقع المر ، وما هذه القصة الا قطرة من بحر الجارف ، وواحدة من مئات وآلاف المواقف المشرفة لثورتنا المقدّسة .

وجيشنا البطل ، وشهدائنا الأبرار ، الأحرار ، وهذه القصة القصيرة والبطولية النادرة ، تعطيك ضوءا على ما قامت به ثورتنا المظفرة . هذا الشاب الفدائي الشهيد فيما بعد ،

كان من عامة الشباب ، يكاد أن يكون عاميا ، لعدم اتاحة الفرصة للتعلّم كبقية زملائه من أبناء الشعب البائسين

كان عاملا بسيطا يعين أباه ، وبعض العاملين في حرفة البناء لكسب لقمة العيش بعرق الجبين ، ولكن حينما اندلعت الثورة المسلحة ونادى الجهاد ، حى على الفلاح ، حي على الكفاح ، كان من السباقين الأولين ، وانخرط في صفوف المسبلين ، مع صغر سنة فهو من مواليد 1934 ، في ضاحيةمن ضواحي المدية ، وأظهر نشاطا كبيرا وشجاعة وثباتا في أحلك الأوقات ، وجرب في عدة أعمال ، فكان يقوم بها على أحسن وجه ولكن كيف يلتحق بالجبل الأشم وينخرط مع المجاهدين الأشاوس ، فاسترعى انتباه القادة من هذا الشاب في جرأته واقدامه وشجاعته وشباته في أحلك الأوقات وأعنف المعارك ، فباع نفسه وروحه في سبيل الله والوطن .

وكان قد ظهر في ذلك الوقت شخص مناوئ للثورة ورجالها مع البطش والتنكيل بالابرياء والتعذيب الفظيع والاستنطاق البشع لكل من تحوم حوله أدنى شبهة لانتمائه لجبهة التحرير الوطني فهذا الشرير ، والضابط المحترف كان قد شارك في حرب الهند الصينية وعاث فسادا في تلك الأقطار ، وجاء برتبة ضابط ، وسهلت له كل أنواع الأعمال ، وفتحت له كل الأبواب جزاء جده واجتهاده .

ولمّا اندلعت الثورة المسلحة وانتشر خطرها على المستعمر البغيض جندوه من جديد وكلف بمراكز التعذيب ، حتى يوقف هذا السيل الجارف ، من التأييد والمقاومة للثورة ، ولأنه تدرب من قبل على أساليب التعذيب والاستنطاق ، وكان مجرما بأتم معنى الكلمة ، فأبوه جزائري ، وأمه أوربية .

وكانت تبلغ أخباره قادة جيش التحرير الوطني في المنطقة ، وفكروا فيمن ينفذ فيه حكم الاعدام حتى يجعلوا حدا لهذا الطاغية ، العنيد ، ولكنهم تخوفوا من عدم نجاح العملية الجريئة ، لهذا الشخص المحتاط كثيرا ، لأنه تدرب على حرب العصابات في الهند الصينية ، وأخذ كل الاحتياطات اللازمة ، لعدم وقوعه في كمين أو فخ كما يقولون ... بحيث لا يخرج من منزله ، ولا مكان عمله حتى يتحري جيدا ... أنه ليس هناك أي خطر ، أو شخص يشك فيه ، وزيادة في الاحتياط ، جعل كلبا متدربا يخرج أمامه ويتحرى الطريق ، قبل أن يخرج من المنزل ، وحينما لم ير أحد ، يعود الكلب ، فيخرج بعد ذلك ، فتأتيه سيارة جيب بسائقها فيركب بجانبه ومعه الكلب ، وفي يده مسدس ورشاش على كتفه ووراءه جنديين مدججين بالسلاح لحراسته ، هكذا في الذهاب والأياب .

وكان نشطا حازما ، وعالما بخبايا الأمور في أغلب الأحيان ..

فأعطيت التعليمات لهذا الفدائي البطل أن ينفذ فيه حكم الاعدام . بعد ما حكمت عليه الجبهة ، لأنه تجاوز حده في البطش والمكر والطغيان ، وآن الآوان أن يوقف عند حدّه ، وليكون عبرة لغيره ، ولكن كيف ينفذ فيه حكم الاعدام ! وهو في هذه الاحتياطات الكثيرة ... فهو لا يخرج من منزله في الصباح ، حتى يتصل بالهاتف بالمركز ، وتأتيه سيارة الجيب بحراسها المدججين بالسلاح ولم يبق الاّ وقت قصير « خمس دقائق » بين النزول ووصول السيارة لحمله ، وفي هذه اللحظة القصيرة قبل وصول السيارة ، يخرج الكلب ليتحرى الطريق ، وحينما لم ير أي شخص يرجع ، فينزل ، ويبقى في ردهة الدّار ، حتى تصل السيارة ، فيخرج بسرعة ، ويركب مع الحراسة بالجنود ، ويكونوا على أهبة الاستعداد لكل طاريْ مفاجيْ مع هذه الاحتياطات المشددة ، كيف يمكن تنفيذ حكم الاعدام فيه « ونصحه أحد أصدقائه والمتجاسرين عليه احدى المرات .. .. أن يخفف من غلوائه وغروره ، ولا يتجاوز حدّه ، فأجابه بكل عتو وغرور واستخفاف ؟، فالذي يريد أن يتجاسر للدنومني لازال لم يخلق بعد ؟! !.

ومن هذه الزاوية تكون هذه العملية من أخطر العمليات الفدائية . وهنا صميم البطولة .

فتلبس له الفدائي ببائع حشائش « نعناع » وفي يده مسدس ضمن الحشائش وكان واقفا في منعطف الطريق المقابل للدار ، فخرج الكلب أولا ، ايذانا بخروجه ، فدخل اليه في ردهة الدّار وكان متأهبا للخروج والكلب معه ، ففاجأه في منتصف الدّرج ، فاندهش ! ، فعرض عليه أن يشتري منه ربطة الحشائش ، وقبل أن يتم الجواب ! أطلق الرصاص ، فضرب الكلب أولا وواصل الطلقات النارية عليه ، وبذلك يكون قد نفذ فيه حكم الاعدام ، وتركه يعالج سكرات الموت ..وخرج سالما بكل هدوء حتى لا يلفت الأنظار اليه ، لأنه في وسط المدينة ولم يبق إلا لحظة وتصل السيارة ، ولما وصلت ! اندهشت ووجدته يعالج سكرات الموت مع كلبه ! فتعجبوا في كيفية تنفيذ العملية بهذه الدقة وهذه السرعة ، فجن جنون السلطات الاستعمارية .

فانتقمت شر انتقام من الشعب ، ونفذت بسبب هذه العملية ، لخطورتها حكم الاعدام في كثير من المحكومين في مراكز الاستنطاق والمشبوهين ...! من ضمنهم الشهيدان



صورة الإمام الشهيد إبراهيم بن دالي الذي اغتيل انتقاما منه للعملية الفدائية التي نفذت ضد الخائن منقاش .

حسان والرشيد اخليل الشرفي والامام الشهيد ابراهيم بن دالي وغيرهم كثيرون ...

ولكنها عملية جريئة وخطيرة ، فانهارت معها معنويات الجيش الفرنسي والجالية الاستعمارية والمتعاون الى أبعد حد .

فلجأة كعادتها الى الانتقام العشوائي حتى تسترجع هيبتها المزعومة ...! في وقت كان العدو يظن أنه قد قضى على نشاط الثورة في هذه الناحية ، وخاصة عملية الفداء....؟

وهكذا عززت هذه العملية كيان الثورة على أنها موجودة وقادرة على تنفيذ العمليات في أي وقت وفي أي شخص وفي أي مكان ... وطال أمر الكفاح واستمر يجاهد مع اخوانه المجاهدين ، ويخوض أعنف المعارك ، وكثيرا ما يخرج منتصرا سالما في الاشتباكات ، والمعارك التي تدور بين جيش التحرير ، وجيش العدو الغاشم .

وفي يوم من الأيام من شهر أكتوبر .. حسب بعض الروايات وحسب ما ذكر على قائد الكتيبة التي كان موجودا فيها ، وهو البطل المجاهد « أحمد الزحاف » الذي لازال على قيد الحياة ، ولازال حيّا يرزق ، فرويت لي قصة استشهاده في معركة قاسية ، قرب البرواقية ، بعد ما أدى

واجبه ، وأخذ نصيبه ، وألحق بجيش الاستعمار أفدح الخسائر ، أصابته رصاصة من جيش العدو ، فسقط السلاح في يده ، وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر تحيا الجزائر ، ويسقط الاستعمار ، وبعد انتهاء المعركة وانسحب جيش العدو ، وجدناه قد التحقت روحه الطاهرة بالرفيق الأعلى ، والابتسامة تعلومحياه ...

وهناك عملية فدائية أخرى للصمود والتضحية والبطولة والفداء ، وهي قصة الشاب بن يوسف مقدم ، الذي نفذ فيه حكم الاعدام ! وهو ثابت لا يتزغزع ولا يتصعصع ، محتسب روحه ونفسه في سبيل الله والوطن ، والذي حاز اعجاب الخصم له أثناء المحاكمة ، وفي وقت تنفيذ حكم الاعدام .

كان الشهيد بن يوسف مقدم ، وهو مقدم للتضحية والفداء ، والمزداد سنة 1940 ، وتاريخ التحاقه بصفوف جيش التحرير سنة 1960 ، تحت ثكنة 1960 وتاريخ استشهاده سنة 1961 .

كان هذا الشاب في مبدإ حياته عاديا مثل بقية حياة الشباب مثله ، لاهدف له ولا مستقبل ينتظره وكأنه يائس من تحسين أوضاع مستقبله لما ينظر ويشاهد من معيشة أهله وعائلته وبني قومه ووطنه ، حياة روتينية ، العمل عند

المعمرين فيه مشقة وتعب ، وأجرة زهيدة لا تكفي لسد الحاجة ولا تسمن ولا تغني من جوع فالى متى هذه الحالة ، والشعب يرسف في قيود الذل والاستعباد .

وكانت نفسه تتوق الى أمر يعجل بالخلاص ويبدل الأوضاع ، حتى ظهر بريق من الأمل ان فيه تنظيم للثورة وسيثور الشعب ولكن كيف ؟ ، وبأي وسيلة ، وبأي طريقة والشعب متحلف والجهود والافكار متباعدة ، ومتنافرة ، في كثير من الأحيان ، والأحزاب غير موّحدة في الهدف والغاية .

ولكن هناك أمل .

وبالفعل اندلعت الثورة ، وأصبحت باسم الجبهة ، جبهة التحرير الوطني .

اذن جاء وقت الخلاص فما على الشعب الاّ أن يتحد في العمل ليرفع عنه كابوس الفقر والذل .

والشعب لا يستطيع العمل ، اذا لم ينظم في كيفية من الكيفيات وفي تجمع سرى منظم حتى يستطيع أن ينفذ الأوامر ولا بد له من قيادة حكيمة رشيدة ، حتى يتغلب على هذا الخصم الجبار العنيد والمستبد الظالم ، فظهرت فكرة تنظيم الخلايا السرية ، فانظم الى احداها ، وبدأ في

العمل ضمن خليته ، وبدأ يتدرب على العمل تارة وجمع الاشتراكات ، وتارة توزيع المنشورات .

وهكذا .. فبدأ الشعب ينظم صفوفه ، ويجمع شتاته ، وبدأت العمليات الحربية في الجبال ، والحركة الفدائية في المدن ، وبقي هو يجمع الاشتراكات ، ويوزع المنشورات ! فلابد من المشاركة في أعمال بناءة وايجابية حتى يبرهن على شجاعته وحيويته واخلاصه لتحرير وطنه .

كل هذا والمسؤولين يراقبون عمله واستعدادته في أي عملية يصلح لها ، حتى يرضوا طموحه وما تتفوق اليه نفسه من الأعمال ، وأراد أن يلتحق مع اخوانه في الكفاح ، فكلف بجعل قنبلة في مؤخر دراجة ، ونظمت بتحديد زمن معين ، وهو المساء في الساحة العامة حيث المقاهي منتشرة ، ويكون التجمع والمقاهي مكتضة وعامرة من الجاليات الاستعمارية والجنود والضباط ، والبوليس السري المنتشر هنا وهناك (وهي ساحة أول نوفمبر الآن) والشعب كأنه محرم عليه المرور بين المقاهي ، وكأنه منبوذ ، وغير مرغوب فيه ، وبعض الجنود يناوشون المارة بالكلام البذيئ ،" فلاقة" مشوشون .. فأصبح الشعب يتحاشى المرور في وسط الساحة ، فيتعرج من جانبها الخالي من الجالسين ، حتى يبتعد عن كل مكروه ، وهو في وطنه وفي بلاده ..

فاغتنم هذه الفرصة فأتى بدراجة محملة بقنبلة مؤقتة وتركها على جانب الطريق ، وكأنه ذاهب ليشتري بعض الأمور ، عند دكان هناك ... وبعد مدة وجيزة انفجرت القنبلة وأحدثت دويا عظيما مرعبا ، وأصابت شظاياها عددا كبيرا ممّن كانوا حولها ، أو قريبين منها ، وبقوا مبهوتين من هذه الشجاعة ، وذهب سالما والتحق مع اخوانه في الجبال ونفسه مطمئنة حيث أدى بعض واجباته ولم يمض به الوقت طويلا ، ويتعود حياة الجبال ، حتى ألقي عليه القبض في تطويق شامل لاحدى الجهات التي كان هو موجودا فيها وبدأ يتسرب الخبر بأنه هو الذي قام بهذه العملية ، فأتوا به الى الاستنطاق والتعذيب ، وبعدها أدخلوه السجن ، وقدم للمحاكمة أمام محكمة عسكرية قاسية في « المدية » ولكنه أظهر شجاعة ، وثباتا منقطع النظير ، أمام القضاة العسكريين وأرادوا أن يخيفوه وأن يرهبوه ، فزاد ثباتا وايمانا بعدالة القضية فقال له رئيس المحكمة : سأحكم عليك بالاعدام ؟ والأحسن أن وتتراجع وتطلب العفو ، وسننظر في امرك ؟ ، فاجاب انني قد قررت مصيري فما عليكم الاّ أن تقرروا مصيركم ، وترحلوا الى الأبد عن هذا البلد ، الذي استعبدتموه ، واستعمرتموه فالأحسن أن تعتنوا ببلدكم ووطنكم الذي أصبح مرهونا عند الدول الكبيرة . فغاض رئيس المحكمة أن يواجهه

بهذا الكلام ، وهذا المنطق بكل جرأة وتحد ! ، فقال اسكتوه ، فقال غاضكم الكلام من أسير مكبل من وراء القضبان وأنتم تمكرون وتعبثون بقيم شعب كامل ، وتفعلون به ما تريدون ، حتى أصبح الحيوان عندكم أفضل من الآدمي الذي تسخرونه لجلب الخيرات ، وترمونه بأخس الصفات « البيكو» فلذا قرر الشعب أن يموت شهيدا أويعيش سعيدا .لم ولا يرى هذه الوجوه الكريهة .

فقال رئيس المحكمة اخرجوه ... وحكم عليه بالاعدام ، وبعد مدة وجيزة ، جيئ بالامام الفاضل عند الفجر غصبا عنه وبدون استشارة ، ولاسابق أخبار ، وأخرجوه من داره عنوة ، ولايعلم أهله أين مصيره ، وأركبوه سيارة جيب بين جماعة من الجنود العتاة القساة ، بدعوى أنهم مجنون للانسانيةأن يعدم هذا الشهيد ، ولا يأتي الامام ليلقنه الشهادة ، في الوقت الذي يريدون فيه ، تنفيذ حكم الاعدام فما راع هذا الشاب الشهيد ، حينما رأى الشيخ وهو بين الجنود ، فظن أن الشيخ كذلك أتى دوره ، لينفذوا فيه حكم الاعدام ، لأنه كان يعلم ، أن هذا الشيخ كان يحكم في قضايا جيش التحرير ورئيس محكمة شرعية للجبهة ، فزاد غيضا ، وقال ألا يكف الشباب للتضحية حتى أتوا بالشيوخ ...

فتقدم اليه الشيخ بهيبته الموقرة وتلا عليه قول الله عزّ وجل في تلك اللحظة الحرجة « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون. «صدق الله العظيم»

وأراد أن يلقنه الثبات ، فوجده كالطود الأشم ثباتا وصبرا واحتسابا ، وكأنه يرأى منزلته في فراديس الجنان فأشرق وجهه وابتسم ثغره في ليلة حالكة من الغيم في الهزيع الأخير من الليل ، والمكان الموحش المقفر قرب الواد الأحرش في ضاحية المدية .

فقال فليعجلوا

المهم أنك نجوت أنت ! لأنه من الصعب من يخلفك في علمك وورعك وتقواك .

أما الشباب ، فهم الأمل المرتقب لمثل هذه المواقف ! ولاخير في الشباب اذا لم يضح بنفسه لإ سعاد شعبه وتحرير وطنه من هؤلاء الملاعين الأنذال ... وبلغ سلامي الحار ، الى أمي العزيزة وقل لها موعدنا الجنة ، في الدار الآخرة ، لأن الدنيا فانية والمهم أن تحرر الجزائر وتعش حرة سعيدة .

فما هي الآ لحظات وأسرعوا يطلقون عليه الرصاص

وهو يلهج بالتهليل والتكبير وبحياة الجزائر حتى خفت صوته ..؟

هذا موقف الشهيد ....

أمّا موقف الشيخ من هذا المنظر المرعب لطلقات الرصاص في صدر الشهيد فكأنها في صدره ، ولم يخفف عليه الصدمة الاّ ثبات ذلك الشاب البطل ، ويقينه لسعادة الشهيد ، ويتلو قول الله عزَّ وجل « وما كان لنفس أن تموت الاّ بأذن الله كتابا مؤجلا » .«صدق الله العظيم » .

وما هذا الدم البريئ الطاهر الاّ سقيا لشجرة الحرية لتنبت العزة والكرامة .

وأثرت فيه هذه الحادثة تأثيرا بليغا ، وكادت أن تهد كيانه ، وتفقد صوابه وهو الطود الأشم ، ولولا يقينه بالانتقام لهذا الشاب بالعدالة الربانية ، وبقي ذلك المنظر الرهيب يلاحقه كل ليلة ، حتى رآى في الحلم في احدى الليالي ذلك الشاب وهو يرفل في الحرير ويقول للشيخ انني قد وجدت ما ذكرت لي في القرآن الكريم .

فتلك صفحة خالدة من البطولة والمجد والخلود لشهدائنا الأبرار ... قدس الله أرواحهم وأسكنهم فسيح جنانه آمين ...

وبعد هاتين القصتين ، وما أكثر ما يشبهها ويفوقها في البطولة والفداء من شهدائنا الأبرار ، وهو يفوق الألف وسبعمائة واحدي وسبعين شهيدا .

وستجد الأكثر والأغلب في تراجم الشهداء فيما بعد .

وحينما اشتدت المعركة وحمى وطيس الحرب بدأت فرنسا كعادتها في سياسة النكر والخداع ، وظنّت أن الشعب يريد الخبز ويريد العمل ، فخططت برامج للبناء ، لتصد الشعب عن المبدأ المقدس ، وطلب العزة والكرامة ، والحرية والسيادة .

فأنفقت أموالا طائلة . ولكن هيهات .

ولنستمع الى معجزة القرآن حيث يصور مآلهم وخيبتهم ، حيث يقول الله عزّ وجل « والذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ، ثمّ تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون» صدق الله العظيم .

واستمرت المعركة قاسية مدة سبع سنوات ونصف ، وما أسهل هذه العبارة في اللسان ، وما أثقلها في الواقع المرّ ، وما قاسى الشعب فيها من أهوال ، وتعذيب ، وقتل وتشريد ، ودم ودموع ، وفي كل شبر لنا قصة . حتى جاء يوم النصر والفتح المبين .

واندهش المستعمرون ، وقلوبهم منكسرة ودموعهم منهمرة ، في حين أنهم ظنوا أن الشعب قد استسلم الى الأبد ، وأصبح مقاطعة فرنسية ؟، وصدق الله العظيم حيث يقول : « حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » .

وهذه هي معجزة القرآن ، يخيل اليك كأنه أنزل الآن ، فلتستمع الى قوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأرثناها قوما آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض ، وما كانوا منظرين .

* * *

عهد الاستقلال

« وقل جاء الحق ، وزهق الباطل ، أن الباطل كان زهوقا ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم ائمة ، ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض، ونرى فرعون وهامان ، وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون ».

صدق الله العظيم .

وانطلق الشعب كالسيل الجارف معلنا فرحته وانتصاره ، ومقدرا جهود أبنائه ، ومترحما على شهدائه ، ويأسف على عدم حضورهم لهذا الفوز ، وهذا النصر ، حيث يعلم أن ما عند الله خيرا وأبقى ، ولاشك أنهم يتنعمون في فراديس الجنان ، والحور العين تغني لهم بأعذب لحن في جنات الخلود .

ويسجل عهد الاستقلال ، أكبر مفجرة لأهل المدية ، وهو بناء مسجد النور كدليل على انتصار الشعب ،

وتعاون الأمة وتظافر جهود أبنائها للبناء والتشييد للأجيال الآتية .

ما هو مكتوب على رخامة المسجد للبقاء والخلود .

أبيات للشيخ الامام الفضيل اسكندر حيث يصوّر بأن هذا المكان كان كنيسة وأصبح مسجدا فقال «رحمه الله» .

الله أكبر جاء الحق وانهزمـــــــت

معالم الكفر وانجلت عنّا المحـــــن

حيث النّواقيس والصلبان قد زهقـت

وحلّ موضعها القرآن والسنـــــن

يا مسجد النّور أنت رمز عزّتنــــا

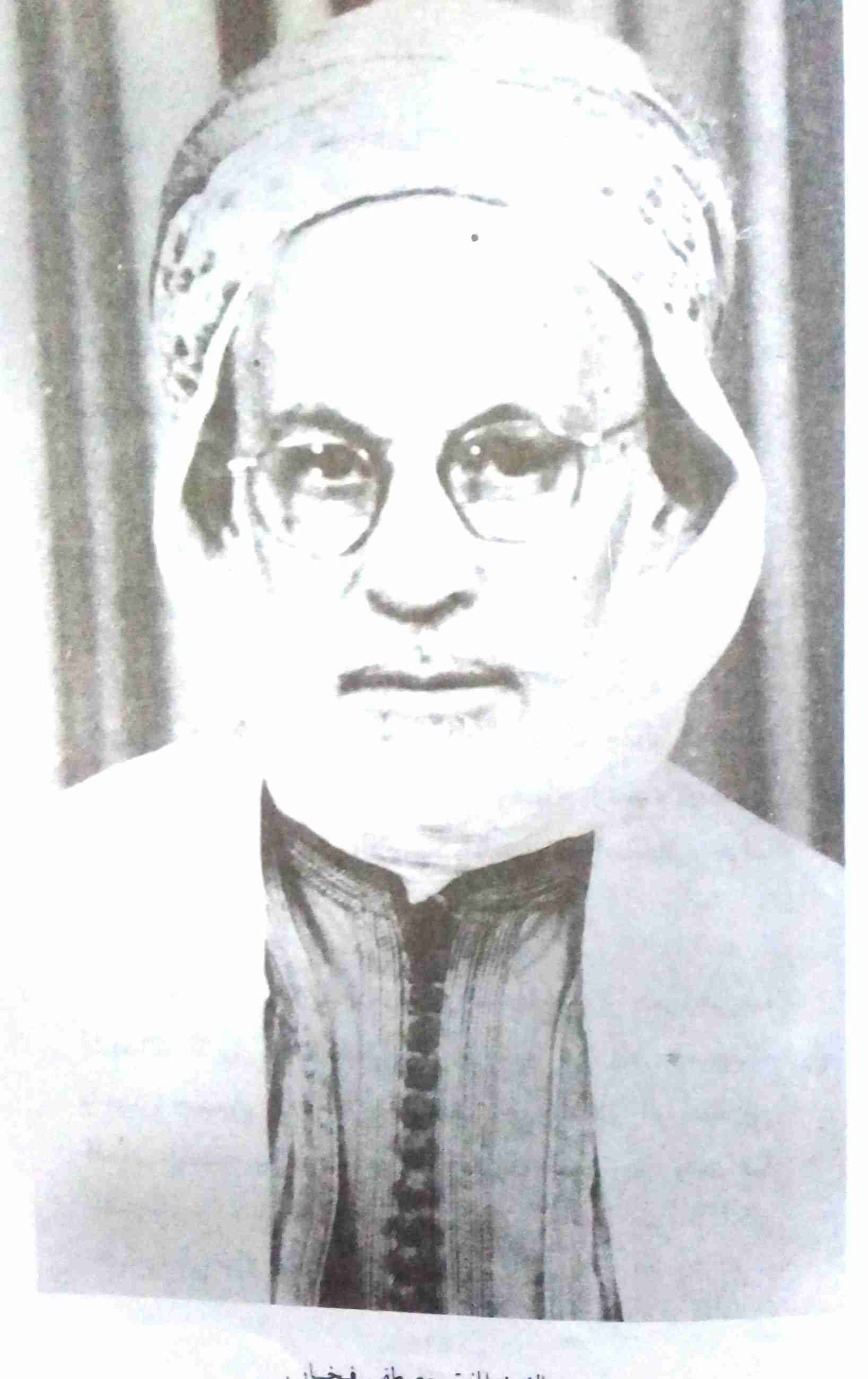
اذا رأيناك زال الهمّ والحــــزن

بك المدية نالت كل مفخـــــرة

وزادها بهجة رونقك الحســـن

وقبل الختام لابد من ربط الماضي بالحاضر لبناء المستقبل ، ونشير الى شخصيات شرفت المدية ، وكانت لها سمعة حسنة ، ألا وهو الدكتور محمد أبي شنب ، والعالم المفسر المحدث الشيخ الفضيل اسكندر ، والعالم الفقيه الشيخ مصطفى فخار ، وهذه صورهما .

وستجد عزيزي الشاب ترجمة وافية لحياة كلّ منهم فيما بعد ، وغيرهم من مشاهير المدية .



الشيخ المفتي مصطفى فخار.

هذه هي المدية عبر عصورها ، وأتمنى أن تكون قد تمتعت خلال هذه الرحلة الطويلة خلال ألف عام أو تزيد .

ولعلك عزيزي الشّاب بعد الاطلاع على هذه المعلومات المستعجلة والمختصرة قد ازددت شوقا الى المزيد منها .

وسأعدك ان شاء الله ستجدها بتفصيل في كتاب : «تاريخ المدية بين القديم والحديث» .

ستجد فيه معلومات شيقة مفصلة ومعززة بالوثائق والصوّر لكثير من المعلومات أخلاق وعادات وتقاليد وتراجم لرجال الفكر والأدب من قضاة وفقهاء وعلماء ومعلمي للقرآن وأدباء وشعراء من الفصيح والملحون ، وأصحاب حرف كثيرة ومتنوعة ومشاهيرها .

وأخيرا تجد ما يسرك ويثلج صدرك من تراجم وتعريف لشهدائنا الأبرار لهذه البلدة وهو ما يزيد عن ألف وسبعمائة واحدى وسبعين (1771) المسجلين في الدفاتر الرسمية في قدماء المجاهدين والبلدية ، تعريفا بهم ، واعترافا بتضحياتهم ، واعتزازا بمجهوداتهم ، وقدوة ونبراسا لكل الشباب من سائر الأمصار والأقطار .

ونعم الأسوة في التضحية والفداء وشكرا جزيلا لوزارة الثقافة والسياحة على المجهودات الجبارة للتعريف بأمجادنا في سائر الميادين .

ولابد من الرجوع للمدية بمناسبة عيدها الألفي نهاذين البيتين للشاعر اللمداني الصديق والزميل محمد الدراجي .

وتهنئتي بهذا العيد نجـــــوى
الى شعب المدية كالمثانــــــــي

فعيشي في الحياة سجل فخـــر
وتيهي بالخلود على الزمــــان

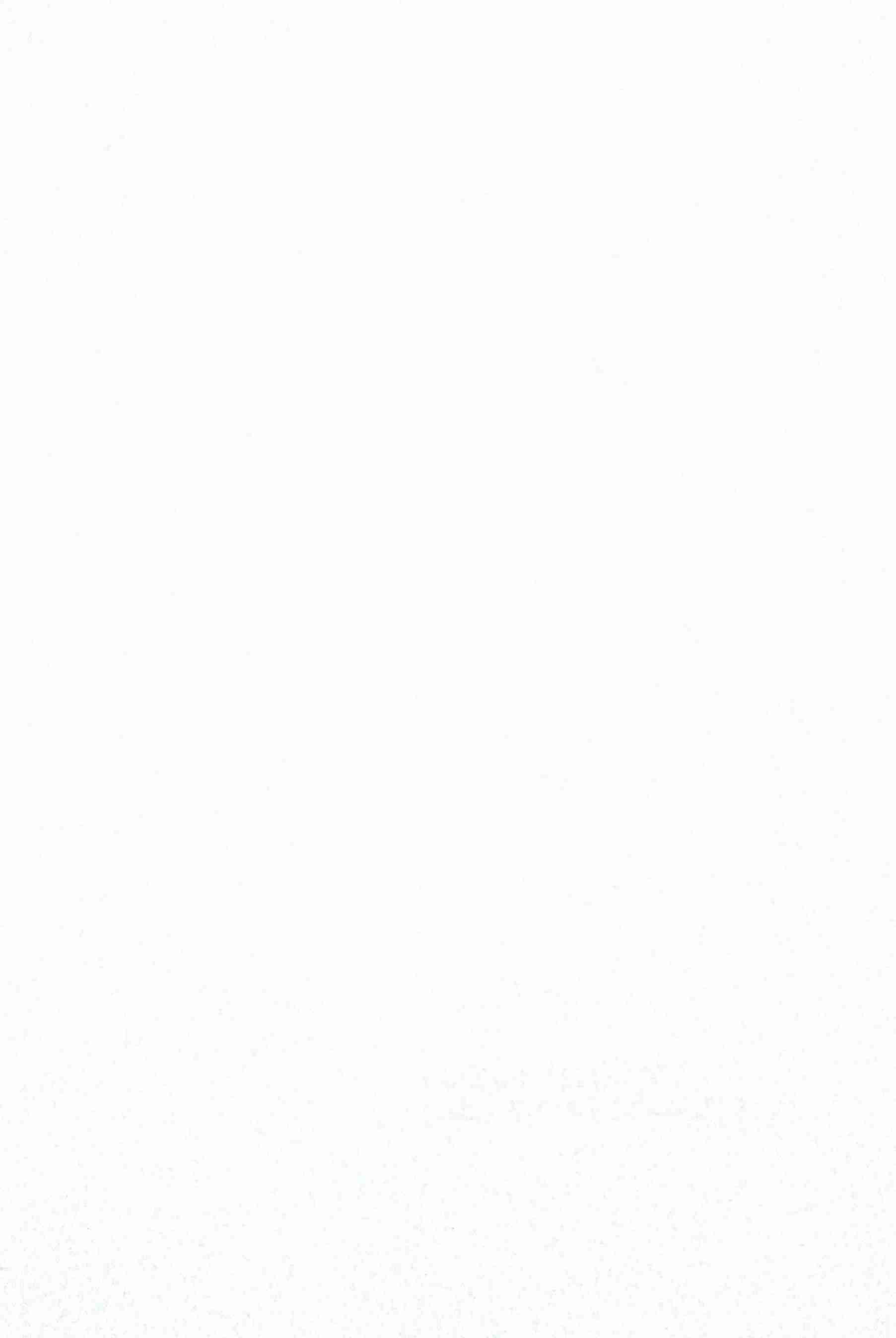


المؤلف أثناء القاء محاضرة عن المدية في عيدها الألفي في الملتقى الفكري الإسلامي السادس 1972 بنادي الصنوبر.

الفهرس

رقم الإيداع : 441 -2007
ردمك : 978-9947-24-112-7

سحب الطباعة الشعبية للجيش
2007



ISBN : 978-9947-24-112-7
9 789947 241127